چيوكوندا من الشرق

(أدب رحلات)

توفيق المبيض



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(كتاب الشباب)

جيوكوندا من الشرق

(أدب رحلات)

توفيق المبيض

الغلاف

الإشراف الفني:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

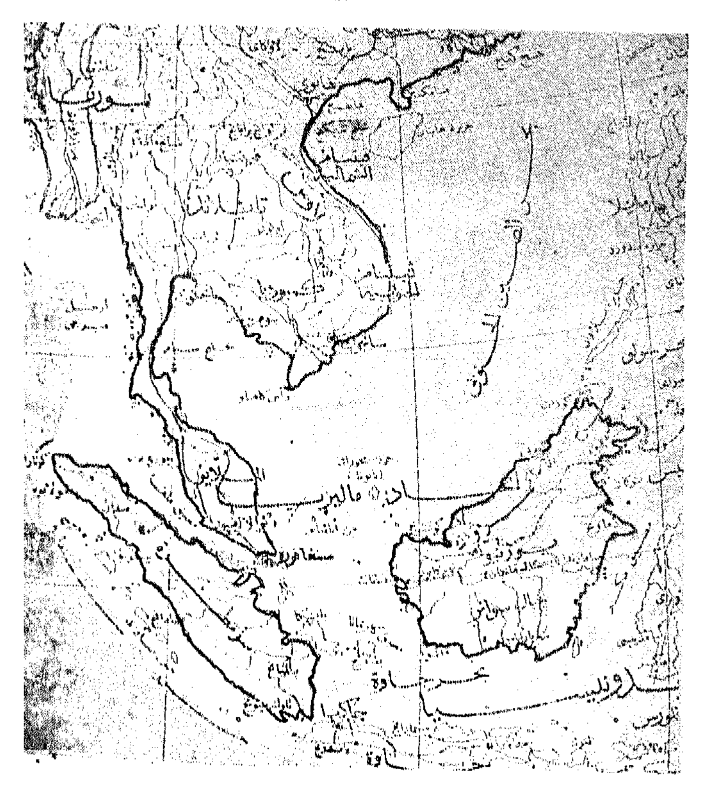
التنفيذ: هيئة الكتاب

إهــــــداء

الى أمى التى حررتنى من الخـــوف ـ فى زمـــن ، المخوف ـ بايمانها المطلق والفطرى بان الأعمار بيد الله وحده ٠

« توفيق المبيض »

خريطة الرحلة



تايلاند ـ سنغافورة ـ ماليزيا

الحلقــة الأولى

تايلاند ... والجيوكاندا

سفرى الى جنوب شرق آسيا ، مبتدئا بتايلاند ، لـم يكن استجابة مباشرة لبيت الشعر المشهور « ســـافر ففى الاسفار خمس فوائد ...... » فحسب ، ولا كان نتيجة اغراء بلغ حد التحريض من قبل الأصـــدقاء وأســـاطير النشرات السياحية فقط ، وانما كان أولا واخيرا بدافع من رغبة أصيلة فى استجلاء كنه عالم جديد بالنسبة لى على الأقل .

عالم لم أره من قبل ، وأن سمعت عنه الكثير . واذا كان من الخطأ عدم قراءة كتاب قيم أهداه اليك صديق ، فانها لخطيئة كبرى ان تحرم انفســـنا من التمتع البـرىء بمجالات هائلة تمتد عبر أروع كتاب وهبه الله لنا متمثلا فى هذا الكون الشاسع بصفه عامة ، وفى كوكبنا ـ الأرض ـ بصفة خاصة .

تذكرت هذا القول للشاعر كامل الشناوى حين هدرت محركات الطائرة ذات صباح يوم من أيام شهر يوليو الحارقة لتقلنى مع حشد من الفارين أمثالي من قبضة الصحراء النارية ـ الى حين ـ كما تذكرت قول الكاتب الامريكى وندل هولمز :

« ان الانسان ·· كل انسان بلا استثناء انما هو ثلاثة اشخاص في صورة واحدة · الانسان كما خلقه الله · والانسان كما يراه الناس ، والانسان كما يرى هو نفسه ·· !! » ·

ورحت أسأل نفسى وأنا أربط حزام مقعدى فى الطائرة مستجيبا لتعليمات السلامة ·· ترى اينطبق هذا أيضا على المدن والدول ؟ ! ·

وهل يمكن أن يكتشف المرء ـ عبر التجربة والممارسة والمعايشة ـ وجوها أخرى لاية مدينة أو دولة ؟

وحلقت بأحلامى وبما حصلت عليه من معلومات ـ وهى قليلة ـ عن تايلاند · كما حلقت الطائرة المتجهة بى اليها ، ودارت عيناى التى غسلتهما أملاح رطوبة جو لا يرحم ، مستطلعة رفاق السفر ، والمضيفات منتظرا فى نفس الوقت شيئا يطفىء الظمأ ، فوقعت على وجه رجل غريب ـ كان فى الكرسى الملاصق لى تماما ـ قصير

القامه · نحيل البنية ··· ذي وجه صيني الملامــح بعيونه المنحرفة وشعره الأسود القصير الذى اجتزه بشكل دائرى من الصدغ الى الصدغ مرورا بمؤخرة رأسه ، تاركـا البقية مكثفة نافرة فى قمة رأسه كعرف الديك أو الهدهد · وكدت ابتسم لولا نظرة معاتبه لمحتها فى عينيه القلقتين حين ضم يديه المسكتين بنسخة انجليزية » من جريدة « الأمة » وعدت انظر اليه فوجدته مركزا نظراته المعاتبة « القلقة » على حذائى فقلت فى نفسى « ربما أعجبه » لكنه بادرنى ، بعد انحناءة طفيفة ، من رأسه :

ــ هل السيد مسافر الى بانكوك ؟

هبت فى أعماق نفسى عاصفة من الذكريات المريرة حول أسئلة مشابهة طالما تعرضت لها ــ مثل غيرى ــ عبر مراكز الحدود العربية ، ولكن وجهه الطيب بدد ســحب الشك ، وافترضت حسن النية عندما أجبته وأنا أسقط قدمى من فوق ساقى الأخرى على سجادة الطائرة :

ــ هذا ان وصلنا بالسلامة ·

بدا على وجهه الارتياح ، وابتسم ربما لأول مرة وقعت فيها عيناى عليه ، واشار الى حذائى وقال :

ــ كانت تضايقنى ·

ــ آسف · لكن المقعد ضيق والرحلة قد تطول ·

مد يده بعلبة سجائرة ، وكنوع من المجاملة تناولت واحدة وإشعلتها ، ومع الدخان المتصاعد فوق رأسينا دار بيننا الحديث ٠٠ بعد أن تعارفنا ٠

قال :

ـ أهى المرة الأولى ؟

قلت :

ـ نعم

قال :

ـ ما الذى تعرفه عن تايلاند ؟

ـ قليلة معلوماتى بالطبع ، لذا أفضل أن تكون انت دليلى ٠

هز رأسه موافقا ، لكننى عدت لأقول :

ـ لكن بشرط ٠٠

ـ ماهو ؟

ـ ان لاتهرب من الاجابة عن أى سؤال ٠

رمقنى بنظرة فاحصة ودودة ومستطلعة وقال :

ـ ماذا تعمل ؟

ـ صيحفى ٠

ضحك وربت على كتفى وقال :

ـ فهمت ٠٠

ـ لاتخف ٠٠ فانا فى اجازة ٠٠

هز رأسه مرة أخرى وقال فى جدية مهذبة :

ـ ما يهمنى هو ان تعرف الحقيقة ٠٠ تأكد أن هذا أمر يهمنى ٠ توقعت أن يقدم لى عن تايلاند ـ بلاده ـ تلك الصورة التى تطفح بها النشرات السياحية ، أو مجرد انطباعات مواطن من خلال رؤية خاصة به ، لكن ما رواه لى كان شيئا مغايرا تماما ٠٠ وغريبا ـ وان كان ضروريا ـ غرابة نصائحه لى حين قال بعد ان اشار الى حذائى :

ـ سبق وأن قلت لك انها تضايقنى وهى حقيقة ارجو ان تعيشها ، ففى تايلاند ٠ وانصحك كصديق ، آمل ان تراعى ما يلى :

- لاتضع قدمك فى وجه تايلاندى ٠٠
- ولا تلمس رأسه عند الحديث معه ٠
- واجلس اذا حادثت أحدا وكان جالسا ٠
- وأترك حذاءك خارج أبواب البيت أو المعبد ٠

● ولاتضع رجلا فوق رجل وانت تحادث الآخرين ·

قلت مشجعا اياه على مواصلة الحديث :

ـ اعرف ان هناك وصايا عشر ، لكنك قدمت لى خمسا فقط ·

ابتسم وقال :

ـ هذا فى المسيحية · اما أنا فديانتى البوذية · وهى الديانة الرسمية لحوالى ٩٣٪ من الشعب التايلاندى ·

ـ وماذا عن الديانات الاخرى ؟

ـ هناك فئـــات قليلة من المســلمين والمســيحيين والبراهماتيين ·

قدمت اليه لفافة تبغ تقبلها بابتسامة وانحناءة من راسة وأنا اشعلها وسألته ·

ـ أأنت متدين ؟

ـ المفروض أننى بوذى · لكننى فى الحقيقة بلا دين · أدهشنى صراحته وجزأته · بنفس قدر دهشته عندما رآنى التقط انفاسى بعد تعرض الطائرة لمطب هوائى مفاجىء كقوله :

ـ هناك ما هو أكثر ·· فى جنوب شرق آسيا ··

ـ أكثر ؟ !



صورة رقم ١
احد المعابد البوذية الضخمة فى بانكوك

ـ نعم · قد يسعدك الحظ فتشاهد التيفون ·

ـ التيفون ؟

ـ التيفون ·· نعم ، وهو اعصار مدارى ذو شحنة هائلة من الرعود والامطار · هل لديكم شيئا مشابها ؟

قلت وأنا أنظر عبر نافذة الطائرة فى قلق :

« لدينا أشياء مرهقة ، لكنها لا تخيف ·· لدينا « الطوز » والرطوبة وأرض على امتداد الارجاء الأربعة بلا نبتة خضراء واحدة · » ثم عدت انظر الى ساعتى مستطلعا نهاية رحلة قالوا انها تستغرق سبع ساعات ، لمحنى فابتسم وهو يمد لى يده بعلبة بيرة مثلجة قائلا :

ـ اشرب ·· فانت ذاهب الى بلاد يطول فيها العمر أربع ساعات دون أن تحياها ·

ـ كيف ؟

ـ أضف الى توقيتكم دائما أربع ساعات أخرى فتحصل على توقيتنا فى بانكوك ··

ـ اذن فلياليكم طويلة ! !

نظر الى نظرة ذات معنى ، وعب من علبة البيرة جرعة كبيرة ثم مص شفتيه وقال · :

ـ نعم ولا ·

شاركته الشراب واشعلنا لفافتى تبغ وأنا اتساءل :

ـ أهو لغز ؟

ـ ابدا ٠٠ فمن وجهة جغرافية تعتبر تايلاند منطقة مدارية استوائية يتساوى الليل فيها والنهار ٠ اما من ناحية سياسية فنحن نعيش أطول ليل سياسى مظلم فى جنـوب آسيا ٠

توقفت عن الشراب ، ورحت اتابع قطعان الغيوم الهائلة والطائرة تخترق أشكالها البيضاء كثوب « بانكوك » التى تخيلتها عروسا آسيوية كم قـالت النشـــرات الدعائية عن لياليها الكثير ٠

لحظ صمتى فواصل حديثه :

ـ فيم تفكر ؟

ـ « فى تايلاند ٠٠ أرض الابتسامات » فجأة وعلى التو انطلقت من فيه قهقهة كفرقعة خشب يتحطم ، مصحوبـة بغمامة من دخان لفافة تبغه القوى وبكلماته المتسللة من بين ثنايا القهقهة والدخان :

ـ ويقولون ايضا انها أرض الحرية ٠٠ فـ ٠٠ فهل ٠٠ هل تصدق ذلك ؟ !

ـ لم أر شيئا بعد ٠

ـ أه يا صديقى لو تعرف الحقيقة ٠

ـ ماذا تريد ان تقول ؟

ـ تايلاند ، ياصديقى ، أشبه بفرنسا ، نفس المساحة تقريبا (٢٠٠ ألف ميل مربع) مع تقارب فى عدد السكان (٤٣ مليون نسمة) ٠٠ ولكن ٠٠ فرنسا بلد النور ، أما نحن ٠٠ فآه ٠٠ وآه ٠٠

ـ وتايلاند أرض الابتسامات والحرية ٠

نظر الى فى جد وعتاب وقال :

ـ أية ابتسامة تعنى وأية حرية ياصديقى ؟! لم يعد فى تايلاند الا حرية واحدة مسموح بها رسميا ٠

ـ ماهى ؟

ـ انها حرية البغاء ٠

فرغت علبتا البيرة امامنا ، وتوهجت السجائر بآخر أنفاسها فأشار (كاى سونج) ـ وهو اسم محدثى ـ الى المضيفة التى حضرت مسرعة ملبية هدير حديث لم أفقه منه شيئا ، وان عرفت ـ بعد ان احضرت علبتى بيرة ـ ان الحديث كان حولها ٠٠ ناولنى احداها وفتح الاخرى محدثا صوتا كالانفجار فقلت :

ـ لكن ما اعرفه ان نظام الحكم لديكم يشبه نظام المملكة المتحدة وذلك منذ عام ١٩٣٢ ٠

نفث دخان لفافة تبغه فى عنف وقال :

ـ لعلمك الخاص · ملك تايلاند بارع جدا فى عزف الساكسفون وقيادة اليخوت · ·

ثم واصل حديثه المشبع بالسخرية :

ـ اما مصير البلاد وقيادتها نحو غد افضل فهو امـر متروك لاصنام بوذا والولايات المتحدة الامريكية والدمى المحلية الاقطاعية والعسكرية ·

ـ والدستور ؟

ـ لحق دستور عام ١٩٦٨ بسابقه سىء الذكر ذاك الذى صدر عام ١٩٣٢ ·

ـ والآن ·· ماذا عن الغد ايها السيامى العزيز ؟

ضحك بعد ان نظر الى فى ود وقال :

ـ معلوماتك قديمة ياصديقى ، فبلادى قد غيرت جلدها واسمها وهويتها ـ بفضل امريكا ـ منذ العام ١٩٣٩ ·

ـ حقا ؟

ـ نعم ، فقد كانت « سيام » وبعد العام ١٩٣٩ صارت « تايلاند » ·

دفعتنى رغبة ملحة فى أن اعاتبه فقلت ممازحا :

ـ وماذا عن القطط السيامية ؟

أفرغ « لكاى سونج » آخر قطرة من بيرته فى جوفه ، وكذلك أنا ، وتذبذبت حركة الطائرة ، فخففت الاضواء ثم اطفئت • وتسلل صوته وهو يعتذر عبر الظلام الواهن :

ـ ساروى لك كل شىء •• بعد غفوة قصيرة ••

ثم ألقى برأسه المحموم بين يديــــه وغطس فى مقعده ففعلت مثله وصورة تايلاند تتزاوج فى الخيال مع لوحة الجيوكندا خالدة الذكر عبر ابتسامة غامضة لم تفصح عن سرهاالدفين الحائر مابين الحزن والابتسامة •

واختلست نظرة الى ساعتى فادركت ان الرحلـــة قد انتصفت • وحاولت ان أنام •• لكن أسئلة حيرى تضـــج فى أعماقى لم تنم • وظلت متأهبة للانطلاق •• حتى هب صديقى « كاى سونج » من رقدته أثر مطب جوى فقلت :

ـ حدثنى يا جارى العزيز •

فرك عينيه وقال :

ـ ماذا تريد ايها الصحفى اللحوح ؟

ـ ما العلاقة بين تايلاند والجيوكاندا ؟ !

الحلقــة الثانيــة

(مدينة صفراء بعيون زرقاء)

● كان الطائر الحديدى الذى يقلنا يخترق قلب الليل الدامس ، مستشعرا طريقه فوق شبه القارة الهندية بمــا زوده المعلم من آلات غاية فى الدقة · ولما لم اعد ارى شيئا مال صديقي « كاى سونج » برأسه نحوى وقال :

ـ كنت تسأل عن العلاقة بين تايلاند والجيوكاندا ·

قلت وأنا استشعر بردا ليليا خفيفا :

ـ ظننتك قد نسيت ، أو تهربت من الاجابة ·

فرك عينيه مرة أخرى ثم سعل ، وبعد أن أشعل لفافة تبغ تصاعد دخانها فى خط عمودى قال :

ـ لم أنس ، ولن أهرب من الاجابــة ·· ياصـــديقى سؤالك صعب ، والاجابة تستغرق زمنا ·

ـ لا تنس أن فرق التوقيت سيضيف الى عمرى أربع ساعات دون أن أحياها ..

ـ ها .. انت مناور بارع .. وهذا شىء يسرنى .. اسمع ..

ـ هات ..

ـ فى الحقيقة سؤالك لم يخطر لى على بال من قبل ، لكننى سأحاول الاجتهاد .

تأملته مليا وأنا اجتر واقعنا العربى وخاطبت نفسى : « فى بلادنا قد منعوا الاجتهاد منذ زمن وحجبوا عنا انواره .. وها نحن نعيش تائهين فى الظلام » ، وانتبهت على صوته وهو يقول :

ـ لكى تدرك سر تايلاند عليك أن تعـــرف تركيبهـا الداخلى سكانيا واقتصاديا وسياسيا . عليك أن تفهم أيضا علاقتها العضوية بجيرانها .. ثم كل هذا فى ظل بوذا ـ هذا القيد الحديدى غير المنظور ـ والمتغيرات الدولية ..

قلت بسرعة :

ـ مهلا .. ودعنا نناقش الامر خطوة خطوة ..

قال وهو يضحك :

ـ افضل أن تناقش الأمور على طريقة خطوة للامام . خطوتان للخلف ..

ـ كما تحب ·· والآن حدثنى عن التركيب السكانى ·· فى تايلاند ·

صمت ثم قال :

ـ التايلانديون القدامى لهم جذور صـينية · شأنهم فى ذلك شأن جيرانهم الكمبوديين ، اللاوسيين ، البورميين ومعظم الفيتناميين · وكانت البداية فى جنوب الصين ، ثم تزحزحوا جنوبا تحت ضغط « قبلاى خان » ابن جنكيزخان فى منتصف القرن الثالث عشر ·

ـ وماذا بعد ·· ؟

ـ ومن القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر بعد الميلاد كانت بلادى جزءا من الامبراطورية الخمريـة الكمبودية ··

ـ وماذا عن علاقتكم ببورما ؟

ـ أوه ·· نسيت أن حربا قد وقعت بيننا وبورما فى القرن الرابع عشر · مما اضطرنا الى تحريك موقع عاصمة بلادنا الى منطقة تبعد عن بانكوك بخمسين ميلا ·· شمالا · لكنها وقعت مرة أخرى فى يد البورميين عام ١٧٦٧ ميلادية ولا تزال آثارها باقية حتى الآن ·

ـ أية آثار ؟

ـ أوه ·· بالطبع آثارها المعمارية وحتى النفسية ··

اهتزت الطائرة قليلا ، وبدا انها تغير اتجاهها وسط الظلام الليلى الخالى حتى من النجوم • فنظرت بعد يأس من رؤية أى شىء خارج سجننا الحديدى الطائر ، وعدت الى روحة الحديث سألت « كاى سونج :

ـ أما من زعيم وطنى مشـــهور عبر تلك الحقبـــة التاريخية ؟

ـ بالطبع ، هناك دائما زعيم ••

أنه « شاو فياتاك سن » لقد طرد البورميين عام ١٧٨٢ ليؤسس مملكة فى بانكوك ؟

قال « كاى سونج » ذلك وانضغط فى مقعده باتجاهى •• ولمحت عبر الضوء الخافت المنبعث فى اجواء الطائرة فتاة فارعة الطول ، شقراء الشعر ، وان كانت على مايبدو فى حالة سيئة •• ابتسم (كاى سونج) وأشار نحوهـــا خلسة وقال :

ـ أوروبية مخمورة ••

انتهزت الفرصة وقلت :

ـ هل عرفتم الاوروبيين ؟

ـ بكافة أشكالهم وأفعالهم ••

ـ منذ متى ؟

ـ أوه . من القرن السادس عشر .. اتى أولا البرتغاليون ، ثم تلتهم قوافل من الالمان والانجليز والدنمركيين .. وأخيرا وليس آخرا جاء الفرنسيون .. فى الحرب العالمية الأولى .

ـ وكانت النهاية فى « ديان بيان فو » ؟ !

ـ لكن ما أن رحل الفرنسيون حتى جاء أبناء العم سام .

لمحت نورا خفيفا خارج نافذة الطائرة .. فقلت :

ـ الفجر قادم ..

اخترقت عينا (كاى سونج) النافذة ثم عادتا فى جولة سريعة تراقبان الاوروبية المخمورة التى عادت تترنح عبر مقاعد المسافرين .. وقال :

ـ هؤلاء الامريكيون يحاولون بمنجزاتهم الآلية تخديرنا ، على نحو مشابه لحرب الافيون المشهورة ، لكنهم فشلوا هذه المرة .. صحيح انهم دمروا فيتنام ، لكن فيتنام دمرتهم أيضا . لقد حولت ٦٠٠ ألف جندى أمريكى الى جيش من المدمنين على الافيون .

ـ ودمروكم اخلاقيا ..

ـ الى حين . لقد انتشر البغاء فى سايجون نعم ، لكن لا تنس ان غانيات سايجون قد ساهمن فى تحريرها ،

كما حررتهن مدينة « هوشى منه » فيما بعد من أقدم مهنة فى التاريخ ..

برد الجو داخل الطائرة وأصبح للهواء داخلها طعم التبغ والرحلة الشاقة (٧ ساعات) لاتريد ان تنتهى . لمح صديقى « كاى سونج » ذلك فقال مداعبا :

ـ أتمنى أن تزور هضاب تايلاند ..

ـ ولماذا الهضاب بالذات دون السهل أو الجبل ؟

ابتسم ابتسامة ذات مغزى وقال :

ـ لكى تعرف معنى البرد على حقيقته ..

ـ أرجوك .. فأنا مخلوق صحراوى .

زادت ابتسامة «كاى» وهو يقول :

ـ لاتخف .. فهناك أيضا أجمل النساء ! !

* * *

مضت خمس ساعات كان من الممكن أن تخنق روحى بثقل وطأتها لولا حديث الصديق « كاى سونج » الذى لم يكف لحظة عن الحديث وما ان انتهت المضيفة من تحريرنا من أطباق الطعام التى وزعت علينا حتى تنفسنا الصعداء .. كما تنفس الصبح بوضوح خارج الطائر النارى الذى يقلنا .. كما أقلت العنقاء السندباد البرى ذات يـــوم .

وانتبهت على صوت موسيقى يتسلل عبر الطائرة ·· وعلى (كاى سونج) وهو يتجاوب مع اللحن سعيدا ·· قلت :

ـ كيف حالك الآن ؟

قال فورا :

ـ «سابى دى ، كوب كون » ·

لم أفقه شيئا فأبتسم شارحا :

ـ هذه كلمات تايلاندية تعنى ممتاز ·· وشكرا لك ··

ـ قلت :

ـ « كوب كن » ·

ابتسم وقال :

ـ « ترونج بى » ·

ثم أردف أمام حيرتى :

ـ أعنى استمر ·

قلت :

ـ « يوت » ·

اندهش فى حبور وسأل :

لا بأس ·· بدأت تتعلم التايلاندية ، لكن من علمك هذه الكلمة ؟

قلت :

ـ من نشرة سنياحية ·· وتعنى « قف » أليس كذلك ؟

ـ تماما ··

ـ اذن لنمض فى الحديث خطوة معك ·· وخطوتان نحو اقتصاديات تايلاند ·· فالاقتصاد محرك التاريخ ·

توقف عن تمايله على أنغام الموسيقى · اكتست ملامحه بجد ظاهر وقال بعفوية :

ـ لـ « ليوسى » ·

ثم قال مستدركا :

ـ أعنى : در يسارا ·

ـ ثم أردف :

ـ تايلاند ياصديقى آسيوية « صفراء » ·· بعيـــون زرقاء ·

ـ ماذا تعنى ؟

ـ آه ، سأوضح لك ، وهذا سيقودنا الى اكتشاف سر العلاقة بين تايلاند والجيوكاندا ·· أليس هذا ماتريده ؟

ـ بالضبط ·

ـ حسنا ·· هل تدرك ياصديقى ·· ؟

ـ ليس بعد ٠

ـ اذن سجل فى ذهنك هذه الحقائق ٠٠ نحن ياصديقى شعب من الفلاحين ٠٠ لأن ٨٠٪ من شعب تايلاند عبارة عن مزارعين ، لكن هذه النسبة العالية لاتملك كلها مجتمعة سوى أقل من نصف الاراضى الزراعية فى تايـــلاند ٠٠ كلها ٠

ـ هذا رهيب ٠٠٠

تناهت كلماتى الى اسماع « كاى سونج » فصمت قليلا كأنه يجند معلوماته وينظمها ثم قال :

ـ ثم أن ٦٠٪ من الفلاحين قد فقـــدوا أراضـــيهم الزراعية منذ خمسة عشر عاما ٠

ـ كما استولى الاقطاعيون ٠٠

« ومايزالون » على ٥٠٪ من المنتجات الزراعية ٠

ثم قال فى غضب :

ـ أما العسكريون فقد استولوا على ٩٠٪ من الاراضى الزراعية المحيطة بمدينة بنكوك ٠٠

ـ وضع غريب٠٠مجتمع العشرة فى المائة٠٠لكن ٠٠

انتظر « كاى سونج » ان اقول شيئا ، لكن أمام توقفى قال :

ـ ولكن ماذا ؟

ـ قلت :

ـ ماتزال تايلاند ـ اعتمادا على حديثك ـ صفراء ٠

هز رأسه وعيناه تخترقان الطائرة الى صورة أبعد ، بدت من خلال كلماته مريرة ٠٠ قال :

ـ مازلت أصر على أن تايلاند ٠٠ آسيوية صفراء ٠٠ بعيون زرقاء ٠٠ أتدرى لماذا ؟

ـ ليتك تخبرنى ٠٠ لادرك سر العلاقة بين الجيوكاندا وتايلاند ٠

ـ فى بلادى،ياعزيزى،أقيم فى مقاطعة «نود بورى» عام ١٩٦٩ مصنع للزيوت النباتية برأســـمال تايلاندى ـ صهيونى ٠٠

ـ صهيونى ؟

سألت فى دهشة مفعمة بالمرارة ٠٠

ـ نعم تايلاندى ـ صهيونى مشترك مقداره « ٦٠ مليون بات » ٠

ـ غريب ٠٠

ـ والأغرب من هذا أن عام ١٩٦٥ قد شهد انشاء اكثر من (١٠٠) مؤسسة امريكية احتكارية فى تايـــلاند ٠٠

فهناك الآن : • شركات والت ديزنى ، كوكا كولا ، فايرستون تشيز ما نهاتن بنك ••

ـ هكذا ؟ ! وبصورة مباشرة ؟

قال بأسى وحدة :

ـ ماذا يهم •• فهناك (٥٠٠) شـــركة ومشـــروع يابانى فى تايلاند •• الوجه يابانى •• لكن فتش •• فتش عن العيون الزرقاء •• تجدها وراء هذا كله ••

قطع مجرى الحديث المكفهر بشــبح العيون الزرقاء صوت مضيفة الطائرة وهى ترجونا ربط الاحزمة والامتناع عن التدخين •• استعدادا للهبوط •• قمت بذلك وصديقى « كاى سونج » يقول :

ـ ثم لتعلم ياصديقى أنه بالرغم من أن تايلاند تأتى فى المرتبة الثانية فى العالم من حيث تصدير الجوت والثالثة فى تصدير المطاط والارز والرابعة فى تصدير الذرة •• فان لكل ٢و١ مليون فلاح فى تايلاند مجزد طبيب واحد فقط •• فقط لعلاجهم •

أخذت الطائرة فى الانخفاض ، وبدأنا نعانى من ضغط جوى أصاب أذنى بالطنين •• ورغم ذلك سمعت « كــاى سونج » يقول :

ـ منذ عام ١٩٥٠ وهدف أمريكا ـ ومايزال ـ تحويل تايلاند الى قاعدة انطلاق عسكرية ضد الدول الاشتراكية

المجاورة· اضافة الى توظيف الاستثمارات الاحتكارية · وجعل تايلاند فى النهاية مركزا « للراحة والاستجمام » !!

هززت رأسى وأنا أعانى من صعوبة فى الاستماع ·· فأردف :

ـ انحازت بلادى الى أمريكا بشكل مطلق منذ توقيع اتفاقيتى التعاون الاقتصادى والتقنى والتحالف العسكرى عام ١٩٥٠ · وفى عام (١٩٥٤) انضمت تايلاند الى حلف جنوب شرقى آسيا ·

قلت والطنين المتزايد بتزايد ارتجاج الطائرة وارتفاع صوت المحركات يصدعنى :

ـ ماذا عن القواعد الامريكية ؟

ـ هناك (٣٠٠) قاعدة أمريكية فى بلادى ·· تصور ·· اضافة الى عشرات الآلاف من الجنود الامريكيين ·

ـ وماذا عن نضالكم ·· ضد هذا كله ؟

حدق فى برهة ثم همس فى حرقة :

ـ لدينا أكثر من (٥٠) حزبا ومنظمة ، لكن جيش التحرير التايلاندى هو ·· هو الأمل ··

شعرت بأن « كاى سونج » ليس مجرد فرد عادى ، انه واع ومتحمس وينوء فكره وعمره بأعباء قضية يلتزم بها ·

وساءلت نفسى « ما المصير ؟ » ثم سألته نفس السؤال فرد فى آسى :

ـ التقارب الامريكى ـ الصـــينى كان على حساب نضالنا · لقد تحررت فيتنام وكانت لاوس وكمبوديا وبورما على وشك الخلاص ·· لكن الصراع الصينى ـ الفيتنامى مضافا اليه التقارب الصينى ـ الامريكى جمد كل شىء ·· ولكن ·· ولكن الدنيا لم تخلق فى يوم واحد ·

استمعت اليه ، ثم نظرت عبر نافذة الطائرة ، كانت **الاشجار والبيوت والشوارع ممتدة تحتنا كبساط من الأمل الأخضر ·· وجاء صوت المضيفة ـ أخيرا ـ معلنا نهاية الرحلة ·· ومهنئا بالوصول ·**

وقبل أن أتحرر من أسر حزام مقعد النجاة مددت يدى، بحرارة مصافحا الرفيق « كاى سونـــج » وأنا اهمس فى أذنه :

ـ تايلاند ·· والجيوكاندا ابتسامتهما حزينة ··

ضم راحتيه واحنى رأسه وهو يودعنى ، بعد أن أخذ بطاقة منى تضم اسمى وعنوانى وقال فى ود :

ـ ذات يـوم ـ وهو قريب ســـتبتسم الجيوكاندا ·· وتايلاند ·

وعند ذلك ستتلقى منى رسالة صفراء ـ بلا نقطة زرقاء واحدة ، كاشعة الشمس الذهبية ٠

* * *

وافترقنا ٠٠٠ « كاى سونج » الى مشواره الطويل ، وأنا ـ السائح الصحراوى ـ الى قلب بانكوك باحثا عن السلوى والحقيقة ٠

وتساءلت وأنا أمضى الى فندق « مونتين » :

ـ ترى هل ستسفر لى بانكوك عن وجهها الحقيقى ؟ !

وتوالت الصور ٠٠ ولكن أية صور ٠٠ نعم ٠٠ أيــة صور ؟ !



الحلقــة الثالثــة

هذه ((النيرفانا)) صعبة المنال

● أين هى بانكوك ؟

كان الشوق يسألنى ..

ولكن .. بعد رحلة جوية مضنيــة ما ابــــدع أن تطأ قدماك الأرض ، وأن تنعم بحمام ساخن يغسل ارهاقــك ، ووجبة شهية تعيد حواسك المعطلة الى نشاطها المعهود .. ولقد تم هذا كله وأكثر .. اذ تمددت كالقتيل فوق السرير بغرفتى فى فندق « مونتين » .. ورحت فى سبات عميق .. ولم أحلم بشىء ، فقد كان غاية ما أحلم به ـ وأنا فى زورق السماء ـ أن أصل الى حضن الأرض سالما .. وقد سلمت

ولكن أين هى بانكوك ؟ !

نعم أين هذه المدينة ـ الجيوكاندا الغامضــة ، وأى

أسرار ستتفتح أمام خطى الغريب القادم من الصحراء العربية ؟

نسفنى فضولى ، فنبذنى سريرى ، وفى دقائق كنت داخل ملابسى فى الشارع ـ نهر حياة أية مدينة ـ وهناك تركت تيار المصادفات ، نعم المصادفات وحدها ، يتلاعب بقارب جولة الاشواق النهمة · كما يحلوله ، عبر مساحة زمنية ، تحدها أسوار اثنين وعشرين يوما ، وأربع ساعات ·· هى فرق التوقيت ·· لم أعشها ـ ولكننى اكتشفت اننى لست بقارب ، كما أن هذه المدينة لم تعد مجرد نهر ·· لأننى أدركت ـ بعد صدمة الدهشة الأولى ـ اننى قد تحولت الى رادار « بشرى » يعمل ـ بفعل طاقة الحرمان والغربة ـ بكفاءة عالية ·· وتحولت تايلاند ، وخاصة عاصمتها ، الى « بانوراما » ·· هذه ملامحها ··

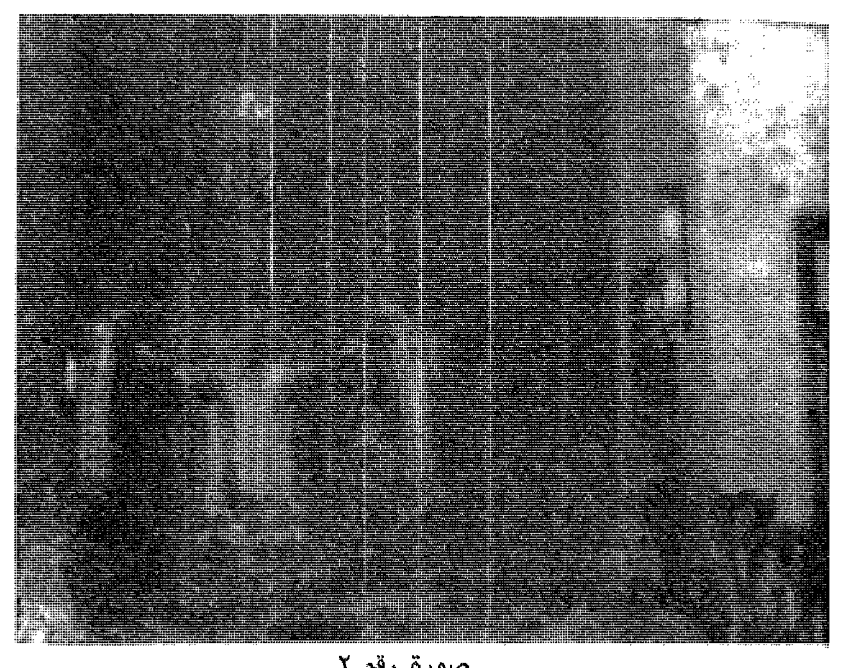
* * *

ـ ماهذا ؟؟

ـ انه ·· بوذا ··

ووقف مذهولا ، أمواج من البشر داخل المعبد ، راكعة أمام سبيكة من الذهب الخالص اسمها « بوذا »(١) ·· والصمت يلف المكان بغلالة من الخشوع الهائم على غمامات من البخور وأنفاس المرتلين ، ودموع تطل من العيون ·· عيون رجال ونساء وصبية وشباب ·

ـ ما هذا ؟



صورة رقم ٢

تمثال بوذا .. من الذهب الخالص ووزنه فقط خمسة اطنان ونصف

ـ انه « بوذا » ..

ولم أحتمل ، لم احتمل لا الحزن الضارى ، ولا الجو الكهنوتى الرهيب ، وتساءلت وانا اقتلع نفسى من غمرة المسحورين : من هو بوذا ، وما هـى البوذيـة ؟

وجاءنى الجواب من دليل الرحلة التايلاندى .

ـ سيدى ، ان بوذا تعنى « المستنير » أما البوذية فانها تعتمد على التأمل ونكران الذات ، وتقول أن غاية الانسان بفنائه .

ثم أردف :

ـ بمعنى أوضح البوذية مجموعة من الاراء الفلسفية والدينية التى نشأت عن تعاليم بوذا ، وأساسها القول بأن حياة الانسان فى الدنيا شر وألم ، وأن التخلص منها انما يتم بالاندماج فى الوحدة الشاملة وهـى « النرفانا » . وسبيل ذلك الزهد ومحاربة الرغبات والشهوات .

ـ ثم ماذا ؟

سألت الدليل ، فأضاف :

ـ وتقول البوذية بمبدأ التناسخ ومبدأ السببية ، وهى تنكر الروحية والبعث والحساب ! !

سمعت ذلك فشكرته وابتعدت ، غصت فى خضم وحدة حائرة مهلكة تتردد فى جنبات هيكلها الضخم كلمة الزهد ·· الزهد ·· ويجيب عليها صدى آخر : « الحياة شر وألم ·· الحياة شر وألم ·· » ·

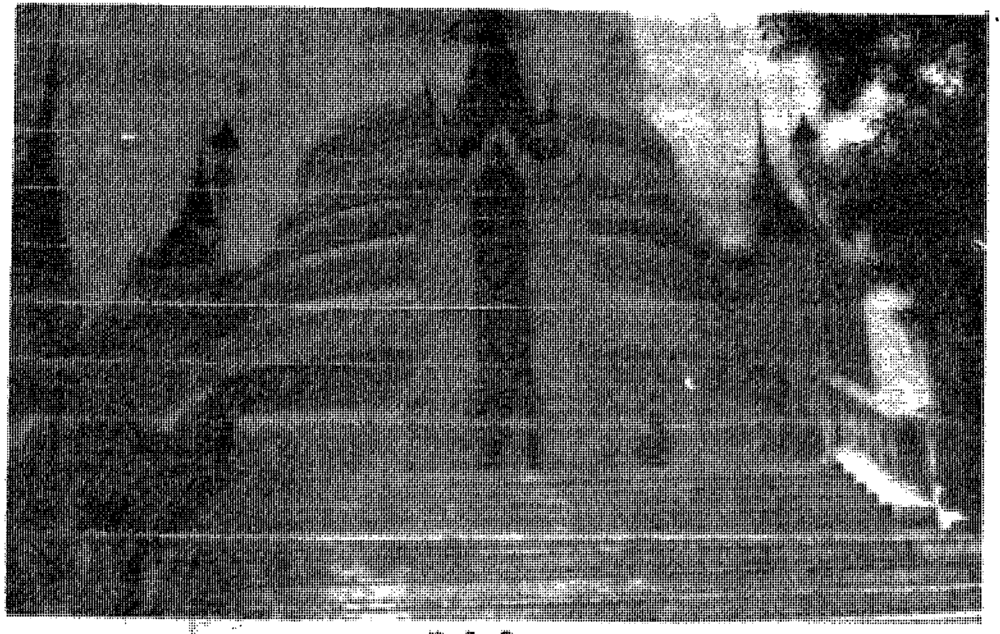
وتساءلت وأنا بين اللعنة والذهول ، وعيناى تفجعان بالاسراف المهلك فى بناء المعبد ــ وهو واحد من آلاف ــ نعم تساءلت :

أى زهد هذا يا أحبار بوذا ؟

خمسة أطنان ونصف من الذهب الخالص هى وزن تمثال واحد فقط من تماثيل بوذا المنتشرة فى آلاف المعابد فى تايلاند ، فهل تدركون وزن شقاء البشر هنا ياكهنة بوذا ؟

وانتبهت على ضحكة ماجنة فنظرت ·· كان هناك فى أرجاء المعبد وفد من السياح الاوروبيين ، وصاحبة الضحكة الماجنة··ذات الشورت الساخن تمضى هازة أرادفها دون مبالاة لابالمكان،أو بمن فيه··والتقطت لها صورة··لكنها لسوء الحظ وجدتها محترقة ، ولست أدرى أكان السبب حرارة الجو ·· أم حرارة شىء آخر ؟ !

* * *



صورة رقم ٣

هنا .. دقة مبهرة فى البناء والزخرفة .. فالشعب معظمه من المهندسين

فى ركن المعبد وقفت اتأمل الدقة المبهرة فى الزخرفة والبناء ، أعمدة طويلة ، والسقوف طبقات فوق طبقات ، كأنها عدد من القبعات الصينية ركبت بعضها فوق بعض ، يعلوها نوع من القباب التى تحاكى برج « ايفل » فى الشكل والارتفاع ..

ذهب .. ذهب .. ذهب ..

من أين كل هذا الذهب ، ومن الذى يدفع مقابله ؟ !

من تبرعات الناس أم من سخاء الحكومة ؟

وراحت الاسئلة والاجتهادات تتصارع فى أعماقى ،

فعرجت على بائع شراب مثلـج لاطفـىء ظمأى .. فتخاطفنى باعة اللوحات والفواكه والشحاذون وصانعو التحف الخشبية شربت . دفعت وهربت .. ومضت الاجتهادات تصارع الاسئلة .

« ان الدين لم يكن فى البدء أفيونا للشعوب ، ولكن مع الزمن تولدت طبقة من تجار الدين يهمها أن تصدأ وتتكلس أروع تعاليمه الثورية ، كما أنها تحرص على اخماد أنوار دستور الحق والمساواة والعدل فيه ، حتى لا تفضح هذه الانوار جهل السدنة وقذارتهم الفكرية ـ ان كان لديهم فكر ـ ومن ثم لا يبقى من جوهر الدين الا قشور من المعابد والطقوس .. ويتحول الأمر فى النهاية الى متاجرة صريحة باسم الدين والديان .. »

ـ صورة ·· صورة ··

وانتبهت على ذراع تشدنى ، كانت يد كاهن حليق الرأس أصفر الرداء ، فدارت عيناى ·· واصطدمت بفتاتين ترتديان زيا ـ لست أدرى أن كان شعبيا أو دينيا ـ وعلى رأسيهما قبعتان كالخازوق ··

ـ صورة ·· معهما ·· من أجل بوذا ··

وحاولتا بابتسامتيهما أن تجذبانى ، لكن كلمة « من أجل بوذا » قززتنى ·· و ·· وهربت هذه المرة الى الشارع ·

* * *

الشمس ساطعة ·· محرقة ، ولهاث سيارات الشحن والركاب يملأ الجو بطبقة لزجة من الدخان،وتصبب عرقى، وانساب كنهر الآدميين الهادر فى الشارع · قامات مختلفة كالازياء ·· لكن الوجوه واحدة !! فالبشرة سمراء والعيون منحرفة ذات لون عسلى ، والشعر أسود فاحم يحيط بوجوه النساء الناعمة ، أما الرجال فتسريحة « الهدهد » هى الغالبة ··

العرق يزداد ، والبحث عن سيارة أجرة فى منتصف النهار أمر مضن · اذن لتملأ عينيك بمناظر الناس والعمارات ·· والعرق ·نسبة الجمال هنا ليست مرتفعةبالمقياس العربى

أو الاوروبى • هنا جمال ذو طابع أسيوى صينى صرف كلهن قصيرات بالنسبة للمرأة العربية ، ويملن الى السمنة قليلا •• ولكن ليس هناك من اكتناز مثير •• أما الابتسامات فصافية تزينها أسنان بيضاء قصيرة كحبات اللؤلؤ ، وأحيانا تشوهها فى حالة عدم الاعتناء بها صحيا •

وجوه •• وجوه •• وجوه ••

عيناى تتابعان آلاف الوجوه • وجوه النساء بلا مساحيق •• لا أحمر ولا أبيض ••

أهو الفقر أم العادات ، ؟ لست أدرى •

وربما البساطة •• فكل شىء هنا مطبوع بالبساطة •• الا معابد بوذا •• وآه من بوذا ••

ـ تاكسى •

صرخت وأشرت ، فتوقف ، ركبت بلهفة فانطلق السائق •

ـ كم تريد ؟

ـ خمسون « بات » •

ـ عشرون •

ـ خمسة وعشرون « بات » •

ـ اوكى ••

مجهد أنا ، ومنديلى قد تحول من لونه الأبيض الى لون رمادى غريق فى العرق ، لا بأس ، فبعد قليل سأستريح · رغم الزحام سأستريح ، رغم الضجيج المفزع المنطلق من مدخنة الهجين الصناعى ـ بين الموتوسيكل والسيارة ـ المسمى « توك ـ توكز » سأستريح ··

ـ منذ متى أنت هنا ؟

سألنى السائق وهو يمســح عرقه النــازف من كل مسامه ·

ـ منذ أمس فقط ·

لمحت مشروع مؤامرة على محياه عبر مرآة السيارة ، لأنه ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال :

ـ هل انت وحيد ؟

قلت فى حذر :

ـ لماذا ؟

ـ انظر هنا ·· لدى فتيات جميلات ! !

وابتسمت ، وأنا أتناول شريطا من الصور ·

ـ ما رأيك ؟ هذه الليلة ؟

تجاهلت السؤال وقلت :

ـ كم مرتبك فى الشهر ؟

هز رأسه ، ومسح عرقه وقال :

ـ ٩٠٠ « بات » فقط ٠٠

ـ أى حوالى « ٤٥ » دولارا أمريكيا فى الشهر ٠

ـ نعم ٠

ووصلت الى الفندق ، نزلت ، وابتسم وأنا امنحه « بقشيش » لابأس به ٠٠

وجاءنى صوته وأنا ألهث فوق سلالم الفندق :

ـ الليلة ٠٠ لا تنسى ٠٠

ولوحت بذراعى اليسرى ، اذ كانت اليمنى قابضة على فيل ٠٠ فيل من الخشب اشتريته بثمانين « بات » للذكرى ٠٠ وغبت داخل المصعد ٠

* * *

فى المكتبات ولدى الباعة وفى الفندق رحت انقب عن الصحف ، بحثا عن اخبار بلادى العربية ، خاصة وان محطات الاذاعة العربية ، التى صدعت أسماعنا بحروبها الاعلامية ، قد استنفذت قواها ، فلم تعد قادرة على الوصول الى جنوب شرق آسيا ٠٠ وهى نعمة على كل حال

·· ولكن ما حيلة الغريب امام تيار الحنين الجارف الى تنسم أخبار الوطن ؟ !

ثم أن الاجازة لا تعنى أبدا اجازة من الانتماء القومى · مهما اشتدت اغراءات النسيان أو تكاثفت سحب ذكريات العذاب ، ولقد وضعوا الشاعر فى الجنة فصـرخ : « آه يا وطنى ·· » ·

هذا ما ردده الشاعر التركى الكبير ناظم حكمت ، وهو قول يجىء متوافقا مع قول الشاعر العربى :

« بلادى وان جارت على عزيزة ··· » ·

المهم أن تايلاند تزخر باصدارات صحفية باللغة المحلية ، وهناك صحف باللغة الانجليزية مثل :

« لوك ايست » ··

اضافة الى صحيفة تحمل اسم « بانكوك » ·

وفى كل مكتبة تطالعك اسماء الصحف التالية :

ـ تاوان ماى : أسبوعية ·

ـ أتيت : نشرة أسبوعية وأخرى يومية ·

ـ اك ـ سيام : نشرة اسبوعية وأخرى يومية ·

ـ بانيثان : نشرة اسبوعية وأخرى يومية ·

ـ ليلى ليلاس : شهرية ٠

ـ أنا جاك خون دونج بى : اسبوعية ٠

ـ براشا تيباتى فايننسيال : أسبوعية ٠

ـ فور ميولا يان يونت بى : أسبوعية ٠

ـ بى ٠ ام : شهرية ٠

ـ ون افترنون : يومية ٠

وبالطبع ، فان قراءة هذه الصحف المكتوبة باللغة التايلاندية ـ وهى مزيج من السنسيكريتية ولغة أخرى ـ ـ تغدو عملية مستحيلة الا للمواطنين هنا ٠

وحين تصفحت الصحف طالعتنى انبـاء فشل مؤتمر ليدز ، وانقلاب فى موريتانيا ، وعدول الرئيس سركيس عن استقالته و ٠٠ و ٠٠

وشعرت بأن « دار لقمان على حالها » ، وان الشرق الاوسط هو الشرق الاوسط بمشاكله وصراعاته وتخبطه بين يمين ويسار ، دون محاولة عربية جادة واحدة لتحقيق الذات والوجود الذى يستثمر كافة الامكانات ٠٠

هذه الانفعالات ، يومية لدى الانسان العربى الواعى فى وطنه ٠ لكنها فى الغربة تغدو انفعـالات فى حجـم اكتشاف المصيبة ، شأن مصيبة تايلاند فى تسرب المجلات والافلام الخليعة الى اسواقها الخلفية ٠٠ وعالمها السفلى ٠

كيف ؟ !

تلك مسألة تستحق التوقف عندها قليلا ، لأن القانون فى تايلاند يحرم تداول وتوزيع المواد الجنسية الخليعة، ولكن رغم أنف هذا القانون ، فان هذه المواد متوفرة ـ خلسة ـ فى البارات ، والشقق الخاصة وأماكن اللهو ٠٠ وانه لأمر عادى أن تتناقل أيدى الاصدقاء فى تايلاند نسخ المجلات العارية ٠٠ حتى تتعرى من أغلفتها ٠

كما أن الناشرين يقومون باعادة طبع ما تصل اليه أياديهم من مجلات جنسية ٠ وفى أماكن معهودة من الاسواق وزوايا الشوارع تتم عملية البيع ٠ ويساهم الاجانب ـ هيبيون وخنافس وأوغاد ـ فى ارواء شبعلات الاشواق المشتعلة واشباع العيون والحواس النهمة الى صور النهود والارداف والعاريات كما يقومون بتصوير حفلات جنسية ماجنة أبطالها عاهرات بانكوك ـ وما أكثرهن ـ وشبان منحلون سواء من الداخل أو الخارج ٠

نعم ، القانون يقول : لا ، لكن من يجرؤ على القول أنه ليس بالاستطاعة الحصول على مجلة « بلاى بوى » أو « وى » مقابل (١٠٠) بات فقط ؟ !

والأمر كله لا يعدو مجرد همسة فى اذن الشخص الصحيح فى المكان الصحيح !! وفى ثوان تتبادل الايدى المغلف والنقود ٠٠ و ٠٠ وشكرا والى اللقاء ٠٠

****

على عتبات باب الفندق وجدته متربصـــا منتظـرا ، وما كادت عيناه تبصرانى حتى قفز بهمة فهد نحوى · كان السائق الذى أقلنى الى هنا ·· وتذكرت ·· تذكرت عرضه النسائى · ولكن ما يشغل بالى ·· اكان شيئا آخر مختلفا بالمرة عما يريده ·· ركبت السيارة ·· وانطلقنا ··

وحين سأل ، اشرت الى موقـع ما على الخريطـــة السياحية ·· فهز رأسه وواصل المسير ، وابتسامة ذات معنى تومض كاشارات المرور الحمراء فوق وجهه النحيل ، ولكنه ـ والحق يقال ـ قادنى الى ما أردت ·· وهنـاك كانت الدهشة ·· اذ كان « التمساح البخيل » فى انتظارى ·· ولكن ما سر بخله ؟ !

لا جواب ·· وربما كانت « النرفانا » وراء هذا كله لأنها ·· صعبة المنال ·

الحلقـــة الرابعـــة

« بوشاى وبوين والتماسيح »

لم تكن سيارة « شاو » مكيفة ، ولم تكن حديثة ، ورحت أحاول معرفة طرازها وسنة صنعها دون جدوى ، ولما كانت حديقة التماسيح التى نقصـــدها تبعد ٣٤ كيلو مترا عن بانكوك فقد قررت أن أحادث « شاو » كلما سنحت الفرصة ٠

قلت وأنا أقدم اليه لفافة تبغ : « ماسم سيارتك ؟ » ٠

مسح (شاو) نهرا من العرق وأجاب بموجة من الهدير التايلاندى لم أفقه منه شيئا ، وبين هدير المحرك وهديـر الكلمات استطعت بعد لأى أن أفهم أنها نوع من السيارات الانجليزية القديمة التى اختفت منذ الحرب العالمية الثانية ، وعموما فنظرة الى هيكلها تؤكد لك أن هذه السيارة يجب أن توضع فى المتحف فورا ٠ ولكنها وسيلة على أية حال ، ثم انها بحالتها هذه تغدو شيئا « ذا قيمة » معنوية تاريخية على الأقل ٠٠

وفجأة اكتشفت أن بها « راديو » فسألت (شاو) أن يتحفنا ببعض الاغاني · مد يده ·· تحرك المؤشـــر ·· وانطلقت دفعات من الصفير والضوضاء والطنين ، ثـــم خمد الراديو فجأة لينطلق فجأة ، في موجة سعال صوتية ، فوضعت راحتي على أذني ولم أرفعها الا ·· عندما لمحت وجه (شاو) يبتسم عبر المرأة ، ورأسه يتجاوب مع ·· لحن أغنية تايلاندية ·· ويبدو انها رائعة ، بدليل أنه منحنى لفافة من علبته ، أخذتها شاكرا اياه باللغة الانجليزية ، ولكنني تداركت الامر ـ مجاملة لازيد من انســـجامه مع الاغنية ، وقلت :

ـ « لكب كن » (شكرا) ·

زادت ابتسامته اتساعا ـ وهى عريضة أصلا ـ وراح يدندن مع الاغنية ، ولكن الراديو الاثرى خيب ظننا ، اذ سكت الصوت الحزين واضمحل صوت الآلات النحاسية المصاحبة له ، فسألت (شاو) عن معنى كلمات الاغنية :

جاءنى صوته وهو يقود السيارة بيد ، ويحاول جاهدا أن ينطق الراديو الأبكم مرة أخرى :

الاغنية تقول :

« فتاة من بانكوك ··

كسرت قلبى ··

لاننى احببتها كثيرا •

وانتظرتها طويلا •

لكنها هربت ••

وتزوجت غيرى ••

فكسرت قلبى •• »

ـ اغنية حزينة ••

قلت لصديقى (شاو) الذى هز رأسه مرات ثلاث ، والسيارة الاثرية تزحف بين آلاف السيارات ـ ومعظمها من اليابان ـ محاولة الخروج بنا من غابة الاسمنت •• الى عالم التماسيح ••

* * *

بانكوك مدينة ضخمة ، وتشبه القاهرة الى حد بعيد فى متاجرها فى ارتفاع عماراتها ، فى نمط الحياة اليومية فيها ، وحتى سمرة الوجوه المائلة الى الاصـــفرار تذكرك بمواطنى القاهرة فى الاحياء الشعبية ومتاجرها •• لكن الاشجار هنا أكثر واللون الاخضر يمتد أينما سرت واينما نظرت••لأن الامطار هنا أكثر•أكثر••وهى حين تنهمر ـ دائما بشكل فجائى ـ تخال أن الشوارع ستتحول الى أنهار، وأن المرور سيتعطل ـ كما يحدث فى بلادنا ـ ولكن شيئا من هذا لا يحدث أبدا ، لأن بانكوك مزودة بشبكة من المجارى

الهائلة ، ومن ثم لا أثر للمطر بعد انتهاء سقوطه ٠٠ وتعود السماء الى سابق عهدها مظلة زرقاء ، تتهادى فى هدوء بين جنباتها أسراب من الغيوم البيضاء ٠٠ ويجمل هذا كله غابات من نخيل جوز الهند المثقلة بثمارهـــا المســـتديرة الخضراء ، وهى ثمار لذيذة الطعم حين تكون طازجة ٠٠ شأنها شأن فواكه غريبة هنا ما أن تجربها مرة حتى تدمنها ٠

* * *

توقفت السيارة الاثرية ، فغادرها (شاو) مبتسما ، رغم حرارة الجو وطول الرحلة ، وتوقعت حدوث مصيبة للسيارة ، ولكن (شاو) قال :

ـ وصلنا ٠٠

فحمدت الله ، ونزلت ـ وبعد أن دفعت ثمن تذكرتين دخلت أنا و (شاو) الى عالم التماسيح ٠٠

* * *

هنا عشرون ألف تمساح وأكثر ٠ ياالهى ٠٠ هل هذا حقيقى ٠٠ ؟

نعم ، هذا حقيقى ، رغم أنه مدهش وغريب ، فالحديقة قد أنشئت عام ١٩٥٠ ، لتكون حديقة ومزرعـة ومتنفســـا للناس وملجأ لهم من ضراوة غابة الاسمنت المسماة مدينة بانكوك ٠٠

ومشينا .. مشينا شمالا فكان الفيل فى استقبالنا .
وهو فيل صبى ، لم يبلغ سن الرشد بعد ، وان كان وزنه يفوق وزن سبعة رجال من أشباه « فتله » ذائع الصيت .
ولانه غر ، ومدلل ، فقد راح يرقص على ألحان نحاسية هازا رأسه الضخم ، ورافعا قدمه محييا ..

« تصوروا » فتصورنا ، اركبوا « الهودج » فركبنا ، ولكن رحمة بالفيل الصبى ، امتطينا ظهر فيل أين منه فيل أبرهه ..

وتساءلت وأقدامى تلامس الارض ، من أين تسربت كلمة « الهودج » الى تايلاند ومن الذى أوصلها ؟ !

* * *

« بسم الله الرحمن الرحيم »

آية جاءت هامسة فى مرح من خلفى فانتبهت ، ونظرت ، كان صبيا ذلك الذى نطلق بها وعيناه العسليتان تفيضان برجاء أن أشترى شيئا مما تعرضه يداه ..

ـ مسلم ؟

سألنى وهو يقذف بحمامة من ورق فى سماء الحديقة ، فتطير قليلا ثم تحط على الأرض .

قلت :

ـ « الحمد لله رب العالمين » .

سلمنى حمامتين من ورق وأردف فى سرور ٠

ـ « الرحمن الرحيم ٠٠ مالك يوم الدين » ٠

تذكرت أن عدد المسلمين فى تايلاند يشكل ٣٪ من عدد السكان ٠

فربت على رأس الصبى المسلم فى حنو ، ونقدته ثلاثين « بات » للحمامتين ومضيت ٠٠ الحمام فى يدى ، وهموم السلام فى عقلى وقلبى تومض كعيون البومة التى كانت تحصبنى بنظراتها من خلال القفص ، فتخطيتها وأنا أخاطب نفسى :

« لاتجزعى أيتها البومة ، فالسلام والحمام فى بلادى من ورق !! » ٠

* * *

مازال صديقى (شاو) يمضـــى أمامى ٠ قادنى الى فتاتين تلبسان زيا دينيا كذلك الذى رأيته على فتاتين فى أحد معابد « بوذا » ٠ اقتربنا فابتسمت الفتاتان ٠٠

ـ صورة ٠٠ صورة ٠٠

« لا أحب المتاجرة ، وأكره استغلال الديـــن فى غير موضعه ، وما أظن بوذا يرضى بهذا » ، خاطبت نفسى وأنا أمامهما ٠

فقالت احدى الفتاتين وهى تبتسم ابتسامة ماكرة :

ــ شان راك كن ٠٠

سألت (شاو) ماذا تعنى ؟

قال فى دهاء مبتسما :

ــ انها تقول : أنا أحبك ٠

ثم اردف : هذا وقت اطعام التماسيح ٠٠

قال شاو ذلك ومضى صاعدا مدارج جسر خشبى يمتد فى اتجاهات متعددة ، لكنها كلها تمكنك من رؤية مرابض التماسيح وغرفها وبركها ٠ لأنها مكشوفة ٠٠

ــ ما هذا ؟

ــ تماسيح ٠٠

قال (شاو) فى حبور طفل صغير هزته فرحة رؤية شيء مبهر ونظرت ٠٠ الى قطعان التماسيح التى تربى ثم تذبح لتتحول جلودها فى النهاية الى أحذية وحقائب ٠٠

نعم ، هنا مئات من التماسيح الصغيرة بين نائمة ولاعبة ٠٠ كلها أما فى الطين أو فى المياه من حولها ،تحرك ذيولها الصغيرة فى ابتهاج بينما حراس الحديقة يمدونها باللحوم !!

وفى مكان آخر ، كان تمساح ضخم قد فتح فاه على آخره وتجمد ·· كان أشهب اللون ، وبجواره تمساح آخر مغلق الفم تماما ·· وقد راح فى سبات عميق ··

ـ تمساح وتمساحة ··

خاطبت (شاو) فابتسم وأسنانه تقرض قرصـــا من البسكويت ثم قال :

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ هذا واضح ، فالانثى دائما ـ حتى فى البشر ـ مفتوحة الفم لعشقها للثرثرة ، أما الزوج فما حيلته غير الصمت ؟

قهقه (شاو) ونحن نمضى الى ركن آخر وقال :

ـ أنت تمساح ياصديقى ·

فأشرت الى دموع فى عينيه لكثرة ما ضحك ، وقلت :

ـ من منا التمساح يا (شاو) ؟

* * *

ـ هذا أهم مكان فى الحديقة ·· وسترى العجب ··

قال (شاو) ·

فقلت :

ـ لماذا ؟

سألت ، فجاءنى صوته لاهثا وهو يخترق صفوف المشاهدين من السياح ..

ـ لأنك ستشاهد مصارعة حقيقية .. بين رجل وتمساح ؟

دفعت بنفسى خلفه شاقا طريقى عبر سائحات معظمهن من أوروبا ، ومعظمهن قليلات الثياب كثيرات الجرأة . وتمكنت اخيرا من احتلال موقع مناسب يطل من فوق الجسر الخشبى على ميدان المصارعة . كان على يمينى (شاو) اما ذراعى اليسرى فقد انسحقت تحت ضغط سائحة بدينة شمطاء من نيوزيلاندا ، وتحملت . فالمشهد يستحق العناء !!

***

تماسيح .. تماسيح .. تماسيح ..

على امتداد ارجاء الحديقة الهائلة تماسيح ، وتحت مظلات لا حصر لها من اشجار جوز الهند واشجار أخرى غريبة .. تماسيح ، وفى غرف اسمنتية وخشبية .. تماسيح .. وكلها فى خدمة السياحة .. والموضة .. عشرون ألف تمساح .. نعم ..

ولكن فى هذا المكان الذى تعتصرنى فيه « رفيعة هانم » النيوزيلندية كما يعتصرنى الفضول .. الى مشاهدة

المصارعة · توجد أقوى التماسيح واضخمها · وربما اشرسها ·

ومكان الحلبة يمتد الى مسافة عشرين مترا أو أكثر طولا ، والى ستة أمتار عرضا · وفى الوسط مصطبة من الاسمنت مرتفعة قليلا عن مجرى المياه المحيطة بها ·· وهناك كان يرقد أكثر من عشرين تمساحا من الوزن الثقيل ··

ودوى المكان بالتصفيق ··

نبهنى (شاو) الى الرجل المصارع · ولكننى لم أكن بحاجة الى تنبيه · فهو بشعره النافر · وجسده الضامر ، وسنين عمره التى تجاوزت الخمسين ·· يجذب انتباهك قسرا ·

حيا المصارع الكهل المشاهدين وهو واقف فوق المصطبة المحاصرة بالتماسيح فاهتز الجسر الخشبى من كثرة التصفيق ، كما اهتزت اضلاعى من الالم والنيوزيلندية الضخمة تعرب عن ابتهاجها · فجالت بنفسى امنية وأنا انتقى أكبر التماسيح وأشرسها ·

وشد الرجل العجوز فوق المصطبة قامته ، ثم تناول حبلا عقده على شكل انشوطه (أو مشنقة) ثم قذف به الى رأس تمساح التقط الحبل بين أنيابه الحادة فورا فى

غضب ·· صرخ الناس ، فشد المصارع التمساح تحت قدميه وتركه على الاسمنت ··

تشجع العجوز ، ثم قام بحركات تشبه طقوس الصلاة تلاها بتقبيل مجموعة من الاحجبة والتعاويذ معلقة فى عنقه ثم قفز الى المياه ··بين التماسيح · التقط ذيل احدها فورا ، ثم جره رغم عناده الى جوار التمساح الآخر الذى فتح فمه الى آخره وتحنط ··

حاول جر آخر ، لكنه رفض · وعقبه انزلاق تمساح من فوق المصطبة الى المياه ·· فما كان من المصارع الى أن ضرب بعصى غليظة ذلك التمساح العنيد على أم رأسه ضربات متلاحقة ·· هرب التمساح ، فلحقه الرجل ، ومن ذيله قذف به الى المصطبة ··

المشهد خطير ، ولكن يبدو أن هناك اتفاقا ضمنيا ــ اتفاق جنتلمان ــ بين المصارع وهذه التماسيح التى يزيد طول أصغرها على أربعة أمتار ··

جذب تمساحا آخر ·· بعد لأى ، فاهتزت الجسور الخشبية ، وهطلت النقود ، فضية وورقيــة ، ومن كل الجنسيات ·

ولكن التمساح الكبير الذى كان فاغرا فمه ، لم يتحرك وظل فمه مفتوحا على اتساعه ·· حتى بعد أن وضع المصارع كل ما جمعه من نقود فى فمه ــ فم التمساح ــ

دون خوف ، وهو أمر دفعنى لأن أترقـــب خدعة ما من التمساح المحنط هذا ٠

لكن (شاو) قال :

ــ انه تمساح أمين ٠٠

وفعلا كان (أمينا) ، ولم يتحول الى تمساح (بخيل لأنه وحتى آخر المشهد ، لم يطبق فمه ، ولم يبتلع «بات» واحدا ، ربما لأنه كان مشغولا بحسابها باطنيا ٠

ليعرف كم تساوى بالدولار ؟

وانفض المشهد ، لكن « رفيعة هانم » لم تتزحزح ، ولما كانت ذراعى اليسرى قد شلت تحت ضـــغط وزنهـا « الخفيف » فقد تمنيت أن يلتهمها تمساح ٠ جذبت يدى فابتسمت جارتى وقالت :

ــ مصارعة مدهشة ٠٠

ــ نعم ، ومعذبة !!

قلت هذا وأنا أدلك ذراعى ، ثم أردفت :

ــ من أى بلاد أنت ؟

فقالت وقدمها بحذائها الحديدى تصهر قدمى ٠٠ ربما دون وعى منها ٠٠

ــ من نيوزيلندا ٠٠ وأنت ؟

فضغطت على اطراف أصابع قدمها بحذائى متعمدا ، كى أتحرر منها وقلت : « يهودى !! » •

صرخت وهى تدفعنى بعيدا عن قدمها ، فكدت أنا و (شاو) أن نقع من فوق الجسر الخشبى •• بين التماسيح ، وحمدت الله على أننى تحررت •• وسلمت منها •• ومن التماسيح ، رغم أنها شتمتنى بكل اللغات •• وربما قدمت شكوى الى السفارة الاسرائيلية فى بانكوك وياليتها فعلت ذلك •

* * *

كانت رحلة العودة اسهل ، والساعة تشير الى الخامسة ـ الواحدة بتوقيت الدوحة والثانية عشرة بتوقيت القاهرة ـ لأن الجو قد اضمحلت سخونته ، ومن ثم انطلقت سيارة (شاو) بنا الى الفندق دون أن تشوبنا بزمجرة محركها أو سخونة الردتير بها ، بل قدمت مالم نتوقعه ، اذ سمحت للمذياع بها أن يتكلم ، وعلى موجة من الألحان ، قلت لصديقى (شاو) :

ـ مامعنى رجل باللغة التايلاندية ؟

ـ بوشاى ••

ـ والمرأة ؟

ـ بوين ••

قال ذلك ، ثم عرض على مرة أخرى صور حسناواته، وابتسامة ماكرة تصاحب كلماته :

ـ سابى دين بوين ٠

وكان يعنى : امرأة ممتازة ٠

قلت :

ـ دع عنك هذا يا (شاو) واستعد لرحلة الغد ٠

ـ الى (السوق العائم) ٠٠ ما رأيك ؟

ـ وماذا سأشاهد هناك ؟

فرد (شاو) فى حماس وترغيب :

ـ « ريا » و « برا » و « انون » ٠

ـ ماذا ؟ ٠٠

قلت فى دهشة :

فقال : دون أن يعى اننى لم افهم شيئا :

ـ وسترى « جروى » و « نوك » و « نو » ٠

قلت وأنا أمنحه ثلاثمائة « بات » ـ اجرة الرحلة ـ راضيا :

ـ أرجوك ٠٠ ان تكلمت بالتايلانديـــة ٠٠ فترجـــم ماتقول ٠

هز رأسه عدة مرات وابتسم وهو يقودنى الى الفندق ثم قال :

ــ غدا ستعرف معنى لكل ما قلته لك من كلمات ..

وفى غرفتى بالفندق تذكــــرت ماحدث فى الحديقة ، فهمست والنوم يصارعنى : بوشاى ، بوين (رجل وامرأة) وتذكرت اسرتى وأولادى ، وحين تهت فى عالم الاحلام .. قابلتهم .. ونسيت .. النيوزيلندية .. والتماسيح ، لكن (شاو) فى الصباح .. لم ينس الموعد أبدا .

الحلقــة الخامسة

ملوك .. ولصوص !

كنت في قاعة الاستقبال بالفندق ، أنقب فى الصحيفة عن أخبار بلادى ، حين انتصب أمامى حاجبا عنى ضوء الشمس الجرىء .. كنظرات الســائحة الاوروبية التى مضت ترمقنى وهى تلوك اللبان ، توقفت عن القراءة .. ونظرت . كان « شاو » .

ــ أهلا « شاو » .. تفضل .

جلس بجوارى على المقعد الطويل المريح ، ولقصــــر قامته ابتلعه المقعد ، ولكنه لم يبتلع كلامه :

ــ ماذا تنتظر ؟

قال « شاو » ذلك وهو يتابع السائحة الاوروبية ، ذات « الجينز » الضيق المثير ، فوضعت الصحيفة فوق وجهه مداعبا وقلت :

ـ أقرأ ..

أطل برأسه من فوق الصفحات ، وقـال وابتسـامته العريضة الممتدة مابين أذنيه تومض عبر وجهه الاسيوى اللطيف :

ـ كانت هناك بالأمس .

ـ أين ؟

ـ فى الــ ..

ـ أين ؟

نهض « شاو » وابتسامته ذات المعنى تشع فى وجهى وقال :

ـ هيا .. الى (نهر الملوك) .. لترى (السـوق العائم) ولتعرف كل شيء ..

* * *

عند أعتاب الفندق أصبت بالدهشة ، فقد سـبقنى « شاو » ليفتح لى باب سيارة حمراء جديدة ، كما فتح فمه وقال :

ـ ما رأيك ؟

ـ وأين سيارتك الاثرية ؟

قهقه « شاو » وأخبرنى بأنها تمردت عليه ، رغم انه استحلفها باسم « بوذا » وجميــع الآلهـــة أن تتحــرك .. فأبت ..

ــ وهل ستحيلها الى التقاعد ؟

ــ ربما .. اذا لم تقتلنى فى حادث ما .

ــ ارجو ذلك ..

قلت ذلك ، و « شاو » يمضى بى الى (نهر الملوك) ، سعيدا بالسيارة الجديدة التى حصل عليها من وكالـــة لتاجير السيارات .. ومع أنغام الموسيقى المنبعثة من المذياع ومع دفقات تيار من الهواء البارد الآتى من جهاز التكييف انتعشت معنويات « شاو » بصورة لم أعهدها . اذ راح رأسه يتمايل كرقاص الساعة يمنة ويسره ، فسألت وريبة ما تتسلل الى قلبى :

ــ شاو .. هل أنت بخير ؟

التفت نحوى وابتسامته العريضة تتمدد خلف سحابة دخان نفثها فى حبور وقال :

ــ كانت بالامس هناك ..

وتذكرت السائحة ذات الجينز الضيق المثير ، فقلت والفضول يتصاعد :

ــ أين ؟

لغمز « شناو » بعينه وقال :

ـ كانت تؤدى استعراضا جنسيا صارخا ٠

ـ هـى ؟

ـ وأنا !

توقفت الكلمات فى حلقى ، ورحت أتساءل فى صمت عما يدور فى هذه المدينة ـ الجيوكاندا ، ورحت وقد تصاعد مد الموسيقى أرقب رأس « شاو » المتحرك كمساحة السيارة التى بدأت تعمل يمنة ويسرة ٠٠ بعد أن هطل المطر ٠

ـ سنغرق قبل أن نصل الى نهر الملوك ٠٠

ـ لا تقلق ٠٠ فالمطر كالسعادة ٠٠ لا يدوم ٠٠

صمت ٠ ولكننى عدت أسأل :

ـ لم فعلتها يا « شاو » ؟

لمح خيبة أمل مريرة مرتسمة فوق محياى ، عبر مرآة سيارته ، فدمدم وهو يعبث بياقة قميصه القديم :

ـ هل أنت قديس ؟

ـ لا ٠

اذن لاتلمنى ٠٠ فأحوالى محزنة ٠

عدت الى كهف صمتى ، ومضيت أرقب دموع المطر المنسابة فوق زجاج السيارة ، والبيوت والبشر ، وتذكرت ـ رغم أننى أرى ذلك يوميا هنا ـ ان نظام المـــرور هنا مخالف لما عهدته فى بلادى ٠٠ فعجلة القيادة علي اليمين ، وحتى مرور السيارات يمضى فى الشـــارع الواحد فى اتجاهين متضادين ٠٠ وان رجال الدين هنا لا يعملون ، رغم إن أفضل أرز هو دائما من نصيبهم ٠ وأدركت تماما القول :

« ان السياحة الحالية هى تعبير عصرى عن كلمــة قديمة هى البغاء » وأن التســهيلات الســـياحية تعنى التغاضى عن تجاوزات لا أخلاقيـــة ٠٠ بهـــدف زيادة الموارد ٠٠ »

ـ كم أعطوك ؟

ـ ألف « بات » ٠

ـ ولها ؟

ـ ألفان ٠٠ فى ليلة واحدة !

***

ـ كم يبلغ مرتب العامل هنا يا « شباو » شهريا ؟

ـ ١٥٠٠ « بات » ٠

ـ والمدرس ؟

ـ ٩٠٠ « بات » ٠

ـ وعامل المصنع ؟

ـ ١٢٠٠ « بات » ٠

ـ وأنت ٠٠ كسائق سيارة ؟

ـ قلت لك ذلك ٠٠ هل نسيت ؟

ـ كم ؟

ـ ٩٠٠ « بات » فى الشهر ٠

ـ دخن ٠٠ اذن يا (شاو) ٠

مددت يدى بعلبة التبغ ، فتناول احدى لفافاتها بيده اليسرى ، التى امتدت فى نصف دائرة من امام وجهه الى كتفه ٠٠ وقال :

ـ كب كن ٠

اشعلتها له ٠٠ واشعلت أخرى ٠٠ لى ، كان مذاقها مرا هذه المرة ، وأحسست بجوع يعتصرنى فقلت :

ـ شاو ٠٠ خذنى الى مطعم ٠

هز رأسه فانتفض شعر رأســـه الذى يشـــبه عرف الديك ٠٠

وقال :

ـ سأريك ماهو أفضل ٠

ولم تمض دقائق حتى توقف ٠٠ فنزلنا معا ٠

* * *

● مضى « شاو » فى خفة أمامى ، عبر الشارع الطويل ، وكانت الساعة تقارب العاشرة صباحا ـ الخامسة بتوقيت القاهرة ـ ، ولم تكن الحرارة قد بدأت بعد ، وبين آلاف البشر ٠٠ من نساء ورجال وأطفال شققنا طريقنا ، لكننى كنت رغم الزحام أحاول بكل جهدى أن أرصد وأسجل واستوعب مظاهر الحياة اليومية فى شارع تايلاندى ٠ وهى لاتختلف عن أية حياة فى أية مدينة كبيرة ، لكن المهم هنا ، هو الابتسامة الدائمة على الوجوه ، رغم العناء ، ورغم بساطة الملبس والمأكل التى تنم عن دخل محدود ، ولست أدرى ان كانت ينابيع هذه البسمات عائدة الى جوهر الديانة البوذية ، أم أنها نوع من الانفعال المضاد ، الذى ترسخ عبر الزمن ، ليغدو في النهاية طابع الحياة المميز ، كذلك الذى نراه فى القاهرة ، حيث تقوم النكات والضحكات بدور التفريغ العصبى لشحنات الحياة الاقتصادية والسياسية القاسية ٠

الشارع طويل ، والعمارات حديثة ، لكن الزمن بدأ يرسم بصماته فوقها ، وبجوارهـا تمامـا تجد حوانيت شعبية ، نبتت بشكل شيطانى على قارعة الطريق ، أو فى

ظلها ، وهى حوانيت يستطيع المواطن الفقير أن يجد فيها ما يسد رمقة بسعر متواضع ٠

لحقت بصديقى « شاو » ٠

وسألته :

ـ الى أين ياشاو ؟

ـ اتبعنى ٠٠

قال ذلك وراح يقفز كالكنغارو امامى ، بين عربات ملأى بالفواكه الغريبة والمعهودة ٠ واخرى بالاسماك المشوية ٠ أو بالبط المسلوق والذى يباع هنا بأرخص الأسعار ٠

شعرت بالجوع أكثر ، وبالتعب بدرجة أقل ، وكدت أنادى « ياشاو » ٠٠ لكنه لحسن الحظ توقف امام مستودع كبير ٠

وقفت بجانبه ورحت أرقب مافيه ٠٠ وتذكرت هديره باللغة التايلاندية عن أشياء سوف يريها لى ٠٠ فقلت وأنا أجلس فى مواجهته على مقعد فى أحد المطاعم الشعبية التى تلاصق مستودع الفواكه :

ـ شاو ٠٠ مامعنى « ريا » ؟

ـ مركب

ـ وما معنى « برا » ؟

نهض شاو واشار باصبعه الى السمك داخل وعاء زجاجى مربع ، موضوع فوق عربة مجاورة ، وقال :

ـ سمك .

وضحكت من التضاد بين كلمتى (برا) و (سمك) ، وهو أمر ادهش (شاو) فسألنى والصبية فى المطعم تقدم لنا وجبة خفيفة مكونة من الارز ولحم البط .

ـ ما الذى يضحكك ؟

شرحت له قدر استطاعتى ، فلما فهم غمز بعينـه والصبية تمضى ، وقال :

ـ ما اكثر اسماك البر هنا !!

ثم اردف :

ـ هل تحب السمك ؟ :

ـ انت ثعلب يا « شاو » .. ولكن ..

قطع حديثى بنهوضه فجاة . عجبت ، لكنه ، مضى دون ان يأبه بى وفى المستودع غاب لحظة ، ثم عاد ومعه لفافة ضخمة ، وضعها على الطاولة أمامى بجوار صحون الارز والبط .. فتحها فتدحرجت أنواع شتى من الفواكه

احداها حمراء اللون ، ذات أهداب لينه وهى عموما تشبه الفراولة ٠٠ سألت « شاو » وأنا أشير اليها ٠

ـ ما اسمها بالتايلاندية ؟

ـ (نـو) ٠٠

واشرت الى الموز ٠٠٠ فقال :

ـ « جروى » ٠

ثم العنب فقال :

ـ « أنون » ٠٠

والتهم ست حبات منها دفعة واحدة ، بينما تناولت أنا احدى الثمار المسماة « نو » وما كدت اقضمها حتى دوت ضحكات (شاو) ، فتوقفت ٠ مد يده وتناول الثمرة منى ، نزع اللحاء الاحمر واذا بثمرة بيضاء فى الداخل ، انتزعها باصبعه ثم قدمها لى ، تذوقتها ، فكانت حلوة المذاق ٠

* * *

عدت الى مراقبة نهر الحياة اليوميـة ، (شـــاو) مشغول بالتهام فواكهه ، وأنا بتذوق كل صنف على حدة وعيناى لا تغفلان ٠٠

النساء هنا يعملن ، فبائعة الفواكه امرأة ، والصبية في المطعم تساعد والدها العجوز وعلى امتداد الشارع تجد من تبيعك المرطبات ، سواء كوكا كولا ، أو عصير فواكه محلية مثلجة ، وفى المعارض والصيدليات ومحلات الأزياء يتساوى عدد العاملات والعاملين تقريبا · لكن نسبة من تقود سيارتها بنفسها ما زالت قليلة · والمرأة ، باختصار ، قد شقت طريقها هنا الى الحياة العملية ولكن الثمن ــ فى ظل الفقر ــ كان فادحا ·

* * *

اشعلت لفافة تبغ ، ودفعت ثمن وجبتى الطعام ، وتبعت (شاو) ، لكنه لم يمض نحو السيارة ، فسألته :

ــ متى سنصل الى نهر الملوك ؟

توقف (شاو) وأشار باصبعه نحو مدخل خشبى طويل مكتظ بالبشر وقال :

ــ لقد وصلنا ··

ــ وصلنا ؟ ! ·

ــ نعم ·· فهيا ·· هيا الى (السوق العائم) ·· فى نهر الملوك··· هذا الـ «شاو» متعدد المواهب فعلا،فهو سائق ماهر ، وعاشق محترف ــ وان كان لايعترف بالحب الافلاطوني ــ كما أنه خير من يقودك ، ان استسلمت

للاغراء ، الى مرابع الانس ولياليهـــا ‥ فى بانكوك ٠ ولكننى اكتشفت ، بعد أن استاجرنا قاربا للنزهة فى نهر « شاوفايا » أو (نهر الملوك) كما تســميه النشــرات السياحية ‥ اكتشفت ان (شاو) رجل برمــائى ‥ أيضا ‥

* * *

من مرسى خشبى متواضع امام فنـــدق « اورينتال هوتيل » انطلق بى وصديقى (شاو) قارب طويل ، كأنه جذع نخلة مجوف ، فوق صــفحة ميــاه (نهر الملوك) الداكنة،وقبل أن نبتعد،لمحت فى الجهة الأخرى من ضفة النهر عدة بوارج حربية ضخمة ، سرعان ما غابت وقاربنا الطويل كتمساح يتوارى خلف منحنى فى النهر تجلله غابة من أشجار جوز الهند ٠

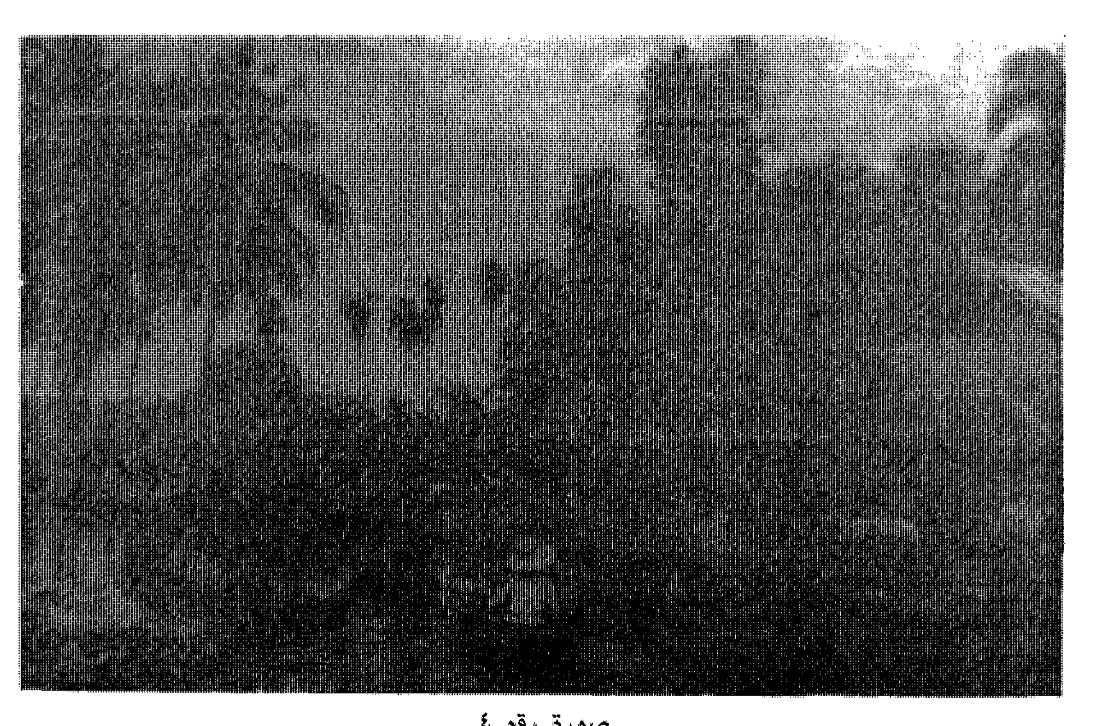
* * *

يا الهى ‥

أى جمال ، وأى سحر ، واية حياة !! ‥

وهل سيمفونية الالوان البدائية التى تتســرب الى مسام القلب وخلايا الحس ‥ حقيقة أم خيال ؟ ٠

و (شاو) صديقى قطعا ، لكنه مجرد انسان عادى ‥



صورة رقم ٤
السوق العائم ٠٠ في نهر الملوك

وأنا لست بقيصر أو نيرون ، ولا حتى مجرد ملك من ملوك الطوائف ٠

ولكن لم هذا الاحتفال ؟ ولمن ؟ ٠

النهر ، نهر الملوك ، يفتح ذراعيه معانقا قاربنا الآلى ٠٠ ذى المظلة الخضراء ، ويرحب ببراءة طاغية بى ، أنا الغريب القادم من أعماق الصحراء ، بملايين من الامواج الضاحكة العابثة ، والمنطلقة بكل حرية الحياة الى جذوع أشجار جوز الهند التى اصطفت كحرس ملكى على امتداد الضفتين ملوحة بسيفها الأخضر النبيل ، لوجـه عـرف فقط النخيل الشقى المحترق شوقا الى نقطة ماء ونسـمة هواء باردة فى الصحراء العربية ٠

« هل يمكن ان يتوحد الانسان ويمتزج مع الطبيعة ؟!»

خاطبت نفسى وعيناى تقبلان اسراب الطيور الملونـة المتهادية تحت مظلة الغيوم القطنية التى غدت ذهبية بفعل الشمس ، واشواقى الى عالم أخضر تتمثل بأهداف ظمئها الطويل صمود الأكواخ الخشبية ، التى وقفت ، فى جلال ، على ضفة النهر ، متمتعة بالشمس والحياة ٠ بينما الاطفال يشاركون أسماك نهر الملوك مهرجان الاضـواء والظلال والالوان ٠ ويساهمون مع الطبيعة البكر فى استقبـال سائح يود لو تجمد به الزمان هنا ٠٠ الى الأبد ٠٠ لأن هنا ٠٠ تعنى (فينسيا الشرق) !! ٠

على الضفتين ·· بيوت ، بيوت ، بيوت ··

وآلاف من البشر يحيون هنـا كمخلوقات برمـائية متكاملة ··

فالنهر هنا ليس مجرد خط مائى على صفحة اليابسة ، لكنـه (خـط الحياة) والأمـل للملايين من بورميين وتايلانديين تعلموا كيف يتفاهمون مع الأرض الخيرة ، بنفس مقدرتهم على التخاطب مع النهر والتجاوب مع لغته وشروطه ·

* * *

نهر الملوك ·· هو الطريق ، لكنه طريق حى ، يموج بالاف مؤلفة من البشر ·· كلهـم ينتعلـون القوارب ـ الأحذية ـ ويمسكون بالمجداف بدل العصا ، ومع دهر من الصداقة والود مع النهر ، باتوا لا يخجلون ·· لأن قانون الحياة هنا ·· هو الوضوح ومن ثم فانهم فى النهر ·· عراة كالحقيقة ·· والحقيقة عارية لمن لا يعشق الزيف ·

* * *

نهر الملوك ·· هو الحى التجـارى ، أو (السـوق العائم) كما يقولون ·· هنا ·· فالآف الزوارق الصغيرة تنتشر هنا وهناك ، حاملة جوز الهند والارز واللحوم والفواكه و ·· البشر ·· من مكان الى مكان ·· وحتى

المطاعم هنا ، ما هى الا زوارق متحركة تبيع ما لذ وطاب، من الوجبات الشعبية المحبوبة ٠

* * *

نهر الملوك ٠٠ تنين مائى له مئات الاذرع ٠٠

وفى لغة المواصلات يبلغ طـــول هذا النهر العظيـم بقنواته ومجاريه المتعددة (٣) مليون كيلو متر ٠٠

(آه ٠٠ أين شاو) ٠٠

ولمحته ، لدهشتى ، خلف عجلـــة قيادة المركـــب ، مستغرقا فى ابداء مهارة جديدة ٠٠ اما قائد المركب فقد راح يدخن تبغه المحلى فى هدوء ٠

نهضت من مكانى فى مقدمة المـــركب ، واقتربت من (شاو) ، كان يغنى على أنغام المحـــرك ، ويداه على الدفة كمن يعزف على اوتار عود ٠٠

قلت : شاو ٠٠

قال :

ـ نعم ٠٠

ـ كم نبعد عن بانكوك الآن ؟ ٠

ـ نصف ساعة ٠

قال ذلك وتابع الحداء ، فعدت الى النهر البكر والاكواخ والبشر وخاطبت نفسي ، (نحن هنا على بعد نصف ساعة من بانكوك ، ونصف قرن عن حضارة الأسمنت والفولاذ) ٠

* * *

حين ودعنا (نهر الملوك) بمرسى « اورينتال هوتيل » عائدين بالسيارة الى نهر الاسمنت والضجيج ٠ سألت (شاو) :

ـ أيهما تفضل ٠٠ السيارة أم القارب ؟ ٠

ـ القارب الآلى ٠

قال ذلك فى حماس دفعنى لأن اسأله : ٠

ـ لماذا ؟ ٠٠

فأجاب فى أسى :

ـ لأن شراء سيارة يتطلب دفع ضرائب تبلغ ١٢٠٪ من ثمنها ، أى اننى اذا اردت امتلاك سيارة ، فانه يتحتم على ان أقدم للحكومة هدية منى سيارة بالمجان !! ٠

ـ شاو ٠٠

ـ نعم ٠٠

ـ سأقص عليك حكاية طريفة ٠٠

ـ ماهى ؟

ـ اخفض صوت الراديو قليلا ‥ لو سمحت ٠

مد (شاو) يده فأسكت الراديو ، واصغى منتبها الى ‥ فقلت : « فى عاصمة دولة أوروبية ، غير مســـتقرة سياسيا ، سأل أحدهم صديقا له :

ـ ماهو الفرق بين المايوه البكيني ‥ وبين حكومتنا ؟

فاجابه صديقه :

ـ لافرق ‥ فكل انسان يتساءل ما الذى يبقيه فى مكانه والكل يرجو أن يسقط) ‥

قهقه (شاو) فى حبور ، حتى دمعت عيناه ، وامام الفندق ، فى رجاء قال لى :

ـ ان كنت تحبنى ‥ فاسهر معى الليلة ‥

كان صادقا فى دعوته ، لكن ما حيلة المرهق امــام طوفان من الاجهاد والنعاس ‥ ومن ثم وضعت راحتى امام وجهى وانحنيت قائلا :

ـ « شاو » ‥ يسرنى ان أقبل دعوتك ‥ لكننى مرهق الليلة ‥

فأجاب على الفور :

ـ لا بأس ·· اذن ما رأيك فى السهرة غداً ، بعد جولة فى سوق اللصوص ؟ ! ··

ـ اللصوص ؟ ! ··

قلت فى دهشة وجزع ، فرد (شاو) وابتســــامته العريضة فى اتساع :

ـ نعم ·· سوق اللصوص ·· لكن لا تخف ·

وظلت الدهشة عالقة بوجهـــى ، حتى بعد أن لوح (شاو) بذراعيه ·· وغاب ·

* * *

الحلقــة السادسة

وداعــا .. للثعبــان

حين صحوت ادركت أننى لم أنم سوى ساعة واحدة ، فلعنت التليفونات .. ولعنت (شاو) الذى ايقظنى قسرا ، كنت شبه مخدر ، فما ان فتحت الباب ليدخل شاو ، حتى عدت الى سريرى ، لكنه بهديره التايلاندى ورائحة تبغه الغريبة وفتحه للنافذة تاركا ضوء الشمس ينفجر فى عينى .. استطاع أن ينسف نعاسى . فنهضت . نظرت فى المرآة فهالنى لون عيونى كانتا بلون شقائق النعمان .. وكى لا يظن بى (شاو) الظنون أمسكت بسماعة التليفون ولوحت بها فى وجه شاو وقلت :

ـ هذا هو السبب ..

ولم يفهم للوهلة الاولى ، حتى حين اشــــرت الى سماعة التليفون والى عيونى لم يفهم أيضـــا ، فرميت السماعة فوق الجهاز وترنحت سائرا نحو الثلاجة . فتحت

زجاجة عصير بشكل آلي وشربتها دفعة واحدة ٠ واكتشفت ان (شاو) قد شرب زجاجتين قبل أن أمد يدى له بثالثة ٠ ما أن تجرعها حتى سأل فى خبث :

ـ ليلة حمراء ٠٠ أليس كذلك ؟ ٠

ـ بل سوداء يا (شاو) ٠

قلت ذلك وعيناى تقدحان شررا ، وهما مصوبتان نحو التليفون الذى سرق ليلتى ، دون ان يسمح لى بكلمة واحدة مع القاهرة ٠ بل تركنى معلقا بحبال أمل كان يومض ثم ينطفىء خلال كل ربع ساعة ابتداء من التاسعة مساء وحتى الرابعة صباحا ٠ ولكنه ورغم كل ما فعله عامل البدالة التايلاندى مخلصا ، لم يحقق لى الاتصال المنشود مع أسرتي وأولادى ٠

شرحت ذلك للصديق « شاو » وانا اغسل وجهى وارتدى ملابسى ، ففاجأنى بنصيحة غريبة حين قال :

ـ عندما تغضب عليك أن تعد من واحد الى عشرة فتهدأ فورا ٠

فقلت واعاصير غيظ تزمجر فى أعماقى :

ـ يا (شاو) نحن فى بلادنا نعانى كل مرارة الدنيا، انا نتمزق ٠٠ ويبدو اننا سنموت ونحن نعد ونوعد ٠

ـ لم ياصديقى ؟ ٠

ـ لأن نصف عقلنا العربى يعيش فى القرون الوسطى أما النصف الآخر فما زال يبحث عن درب يقوده الى القرن العشرين ·

ـ اذن عد من واحد الى عشـــرة ، وهى باللغـــة التايلاندية كما يلى :

نن = واحد

سون = اثنان

تام = ثلاثة

سيى = أربعة

هـــا = خمسة

هــوك = ستة

تيت = سبعة

بـــات = ثمانية

كاو = تسعة

سب = عشرة ·

قال ذلك وضحك ، ولما كان شر البلية مايضحك فقد ضحكت أنا الآخر حتى كدت ابكى · ثم قلت :

ـ لا فائدة ·· يا (شاو) ، فالتحايل والصبر هو مقتل العالم الثالث ·· بينما المطلوب هو النسف والتدمير ··

ـ لا تضع فى عقلك قنبلة ·

ـ التخلف هو القنبلة يا ·· (شاو) ·

ـ أوه ·· لقد تخلفنا عن موعدنا ·· وسوق اللصوص فى الانتظار ·· فهيا ·

ومضيت مع « شاو » الى السوق ·· واحزان أربعين عاما مرت على سرقة وطنى ، تصرخ تحت سقف جمجمتى هاتفة ، بما قاله بريخت ذات مرة :

« أى زمن هذا » ؟ !!

الحديث عن الاشجار يوشك أن يكون جريمة

لأنه يعنى الصمت على جرائم اشد هولا ·· »

* * *

الساعة الآن الثامنة صباحا ـ الثالثة بتوقيت القاهرة ـ فى بانكوك · وهذا يعنـــى أن دورة جديدة من الحياة اليومية قد بدأت ·· عبر عملية انتقال جماعية تشـــمل الملايين ، انتقال من السرير الى ترس الآلـــة ، ومحراث الأرض ، وأصبع الطباشير ، وثمار الاشجار ، وصيد البر ، والبحر ، ضمن قانون الآخذ والعطاء ·

ولمدت على الرصيف بجوار فندق (شيراتون) امرأة بائسة مع طفلين ٠٠ همـــا فى الحقيقة مجرد هيكلين عظميين ضلا طريقهما الى القبر ، فتوقفا هنا لممـــارسة التسول ٠ ومر شاب أوروبى مهلهل الثياب ، كث اللحية ، غزير الشعر ، فطارداه ، لكنه دفعهما بعيدا ومضى ٠٠

لمح (شاو) ذلك والسيارة تزحف محاولة التقـــدم خطوة واحدة ، وسط الشـارع الذى زرع بالســـيارات فقال :

ـ لدينا مليون عامل ٠٠ دون فرصة عمل واحدة ٠

ـ بل لديكم مليون فرصة للكسب ٠

قلت ذلك وضحكت ، فسألنى (شـاو) فى دهشـــة ولهفة :

ـ مليون فرصة ؟ كيف ؟ ٠

ـ نعم ، فلقد زار تايلاند فى العام الماضـــى مليون سائح وفهم (شاو) ما اعنى فقال هازئا :

ـ مليون سائح ، نعـــم ، ولكن ما اكثر من ينافس منهم المنحرفات والمتسولين هنا منا ٠٠ فى المهنة ٠

ـ ولكن ٠٠

وددت أن اكمل حديثى ، لكن (شاو) بادرنى وهو يرى نظرة عتاب ترتسم على وجهى ، بقوله :

ـ ولكنك لست منهم على أية حال ٠

ـ عليك اللعنة ٠

ـ أوكى ٠٠

قالها (شاو) ضاحكا وزاد من سرعة السيارة ٠

* * *

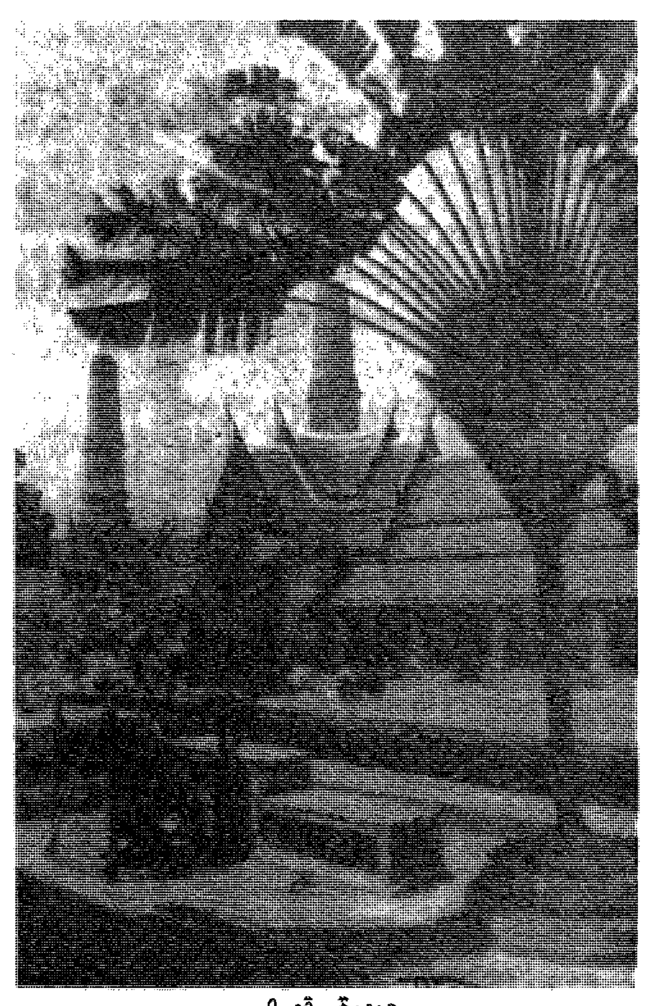
غريب هذا الحى ذو المتاجر والمصانع البسيطة والمطاعم الشعبية ٠٠ فالباعة المتجولون ، والأصوات الراعدة ، وزمجرة عربات النقل ذات الثلاث عجلات ، وانتشار النسوة العاملات ـ بين بائعة خضار ، أو سمك ، أوملابس قديمة ـ بشكل مكثف ٠٠ يذكرك هذا كله بأسواق القاهرة الشعبية ٠ وان اختلفت سمات البشر وملابسهم ولغتهم وديانتهم ٠

فهنا وعلى الصفين عبر هذا الحى الشعبى ٠ تجد النجارين والحدادين وعمال الورش ، والميكانيكيين ، وباعة الاثاث ، وعلى بعد تجد سوق الصياغة حيث الذهب بالاطنان ، معلقا فى واجهة المحلات ، وداخل أماكن العرض بصورة لا مثيل لها ٠٠ الا هنا ٠٠ فى تايلاند ٠٠

ـ من أين يأتى كل هذا الذهب « ياشاو » ؟

ـ من المهربين ياصديقى !! ٠

ـ اذن فهو مغشوش ٠٠



صورة رقم ٥
ومر من هنا ٠٠ مليون سائح

ـ لا ·· ومعظمه ذهب ٢٤ قيراط ! ·

ـ اهذا هو سوق اللصوص ؟ ·

ـ لا ، وخاصة صغارهم ! ·

قال « شاو » ذلك واطلق لبوق سيارته العنان ، كى يشق الطريق ، وبعد برهة التفت نحوى فجأة وهدر صوته :

ـ قبل سوق اللصوص ، سنزور حديقة الافاعى ! ·

* * *

بعد ان تسلل شاو عبر شوارع فرعية ، انطلق باقصى سرعة ممكنة ، متخطيا الشاحنات وراكبى الدراجـــات ، فقلت :

ـ يا «شاو» ·· سر ببطء لكى نصل بسرعة ··

ـ لا تخف ·

ومضى كسائق جهنمى ينهب الأرض ، وسط عاصفـة من الالحان التايلاندية ، التى كانت تنطلـــق من المذياع ، وشعرت بأننا مقدمون على كارثة · لكنها لحسن الحظ لـم تتحقق ، رغم اقترابنا من حدودها المدمرة ، حين حـــرث (شاو) الأرض بسيارته قرب حديقة الثعابين ، ليتفادى طالبة من طالبات المدارس المجاورة · ظهرت فجأة ، واختفت وسط الجموع ، فجأة كما ظهرت ، تاركة قلبى يدق كطبول أفريقية مدوية ·

ـ كدت تقتلها وتقتلنا ..

ـ (شاو) .. لايموت ! .

ـ هل شربت شيئا غير العصير ؟ .

ـ شاى وبيرة ، وثلاث سجائر مشحوة بالماريجوانا !!

ـ الله أكبر .

ـ ماذا تعنى ؟ .

قال « شاو » وهو يمضى بى متجها الى قلب حديقة الافاعى .. تاركا السيارة تلتقط انفاسها فى هدوء .

ـ أعنى أننى لم اتهيأ لكتابة وصيتى هذا العام على الاقل ، ضحك (شاو) .. وحاولت أن أقلده .. لكن الضحكة تجمدت امام منظر الثعابين .

***

بين الاشجار تتوزع الاقفاص الزجاجية . ويتحلق السياح حولها والدهشة ممتزجة باطياف خوف فوق الوجوه . وتومض أضواء آلات التصوير ، مسجلة مناظر الثعابين الضخمة ، النائمة بتكورات .. فهمنا من حارس الحديقة .. انها كانت منذ دقائق فئرانا وضفادع .. بينما راحت « الكوبرا » تحدق فى وجوهنا فى كبرياء شرير ، هو الموت بعينه ، فيما لو استطاعت الوصول الينا .

ودق (شاو) قفص ثعبان اشهب ، أطول من قامتى ، وأثقل من وزن (شاو) ، وأكثر مسالمة ووداعة من حارسة المزرعة ومساعديها ، اللذين فتحا القفص وأخرجا الثعبان المروع منها :

ـ هل تتصور معه ؟ ٠

سألتنى الحارسة العجوز وآلة تصـــوير فورى بين يديها ٠

ـ أنا ؟ ! ٠

ـ نعم ، والصورة بستين « بات » ! ٠

واقترب الحارسان المساعدان وبين يديهما الثعبان ٠٠ فتراجعت وأنا أحاول أخفاء خوفى ٠

ـ لا تخف ٠

قال « شاو » وقالت الحارسة العجوز واعقب ذلك قيام المساعدين بغتة بوضع الثعبان اللعين حول عنقى ، و ٠٠٠ وكاد يا أقدار أن يغمى على ٠

ولكن عيون السـياح وخاصة النسـاء ، وامســاك الحارسين بالثعبان ، وابتسامة (شاو) التى تكاد ان تتحول الى ضحكة مدوية ٠٠ و ٠٠ والرجولة العربية ٠٠ و ٠٠ وادعاء الشجاعة ٠٠ كل ذلـك ٠٠ جعل منى أنا الغلبان العربى ٠٠ « بطلا من اسمنت لا يهتز ولا يلين ـ



صورة رقم ٦
فى حديقة الثعابين ·· لاتخف !!

بفعل الرعب ــ والتفت الحية الرقطاء حول عنقى ، وبما أن المقادير تجعل من العى خطيبـــا ، فلم لا أكون أنا ــ والأعمار بيد الله ــ بطلا ·· حتى ولو غدوت جثة ! ·

وومضت أشعة آلة التصوير فى يد العجوز ، كمـــا طارت روحى شعاعا ·· ولم ترتد الا بعد أن انزاحت عن كاهلى اللعنة ، وسط تصفيق الحاضرين الذين كان من الممكن ــ لولا أن الله سلم ــ أن يتحولوا الى معزين بوفاة الفقيد ــ أنا ــ الذى رمته المقادير ·· و (شاو) ·· فى هذه الورطة ·

ولكن أين شاو ؟

وجاء ·· فأطلقت عليه سيلا من الشتائم (باللغـــة العربية طبعا) رغم أنه جاء حامـــلا ·· أربع ثمار من ثمرات جوز الهند الطازجة ، كدت من روعى أقذفها بكل ما أملك من غيظ باتجاه رأسه ، لكن خجلى منعنى من ذلك ·

ــ والآن ؟!

قلت ، وأنا أكاد أعدو نحو السيارة ·

ــ الى سوق الصوص ·

جاءنى صوته المـــاكر وهو يلحق بى ليفتـــح باب السيارة ·

* * *

فى الطريق الى سوق اللصوص سألنى (شاو) :

ــ هل خفت من الثعابين ؟

ــ عليك اللعنة ٠

ضحك (شاو) ومد يده بعلبة سجائره نحوى ٠

ــ تفضل ٠

ــ لا ٠٠ فأنا لست فى غنى عن رأسى ٠

ــ صدقنى ٠٠ انها سليمة ٠٠ وأقسم على ذلك باسم بوذا وتايلاند ٠

ــ وماذا يعنى لك بوذا أو تايلاند ؟

ــ أوه ياصديقى ٠٠ يقال هنا :

« لا تايلاند بدون بوذا »

« ولا تايلاند بدون الملك » ٠

فابتسمت ، ومددت يدى ٠٠ وحين أشعل لى (شاو) سيجارتى قلت له :

ــ مالا يقدر عليه الشيطان ٠٠ يقدر عليه (شاو) ٠

فلوح بعود الكبريت المشتعل أمام عينيه عدة مــرات ثم اطفأه وأوقف السيارة !!

ـ لم توقفت ؟

ـ لقد وصلنا ··

* * *

« ليس كل ما يلمع ذهبا » ·

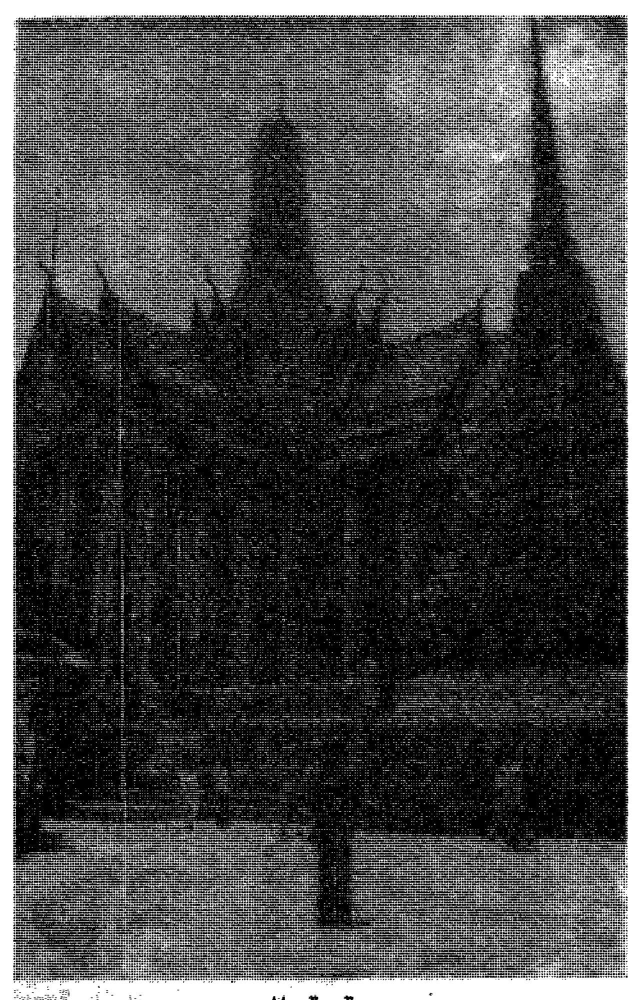
هذا ماكنت أردده بينى وبين نفسى وأنا اخترق الحشد البشرى القادم من كل انحاء بانكـــوك ·· فى ســـوق اللصوص · وعيناى تحتويان هذا العالم الغريب المسمى حاليا فى النشرات السياحية سوق الأحد » ·

بشر ·· بشر ·· بشر ··

شيوخ وشباب ، طلاب وطالبات وصبية ونســـاء ، وأطفال ، وجوه صفراء وبيضاء وسمراء ·· وزنوج أيضا، وملايين من الاشياء بين سيوف وخناجر ولوحات فنيـة رخيصة ، وقبعات من القش ، وملابس قديمة وحديثة ·

وفى أقسام محدده تجد القداحات ، والمناديل وأوراق اللعب جنبا الى جنب مع الصور العارية والكتب والدفوف والطبول !!

ومع لعب الاطفال والاحذية تجد الاســـاور والعقود ومصنوعات نحاسية كالسلاسل والخواتـــم · كما تجـد أدوات النجارة والحدادة ·



صورة رقم ٧

يقال هنا : لاتايلاند بدون بوذا ..

ورغم أن سوق اللصوص (سوق الأحد الآن) اسم على غير مسمى ، فان (شاو) قد حذرنـــى مـــرارا من اللصوص ، لكنى لم اكترث ، لسبب بسيط ، وهو أننى منذ أن قررت زيارة هذا السوق ، قد قمت بتجريد جيوبى من كل شىء يمكن أن يطلق عليه اسم نقد أو نقود ، ولـــم احتفظ الا بستين « بات » ــ ٣ دولار ــ فقط لاغير · وقد استولت عليها الحارسة العجوز فى حديقة الثعابين نظير التقاط صورة لى مع ثعبانها الرهيب !!

* * *

سوق الأحد(١٠) ·

نبض بشرى ، وصوت حياة ، ورائحة فولكلور وطنى صميم · وصورة لاتمحى من ذاكرة أو خيال ، ونمط نشاط انسانى يبعث الدفء فى أوصال حياة تردد فى جنباتها روح الشعب ·· البساطة ·· الالفة ، لهذا فان المكـــان هنا لا يتعامل مع ساكن القصر بل مع ابن الكوخ الهارب من « بوتيكات » العصر ·

وآه من الفقر ·· .

* * *

سوق الأحد ·

فى بانكوك ·· نبض وشوق وذكريات · وتحت ضغط هذا الاحساس وتجاوبا مع عالم ذى نكهة خاصــــة كتب (Khanet) (١)فى صحيفة«ناشيونال ريفيو»ببانكوك الصادرة فى ١٦ يوليو ١٩٧٨ مايلى :

« وداعا سوق الأحد » ·

رغم اننى سأظل افتقدك ، وافتقد نبضــــك واتقادك الحزين المتوهج بفعل التواصل بين بشر من مختلف مشارب الحياة ·

وسأفتقد الآكلين فيك ، من وزير وعامل ، حيث الكل متجاور فوق مقاعدك الخشبية العتيقة ·

وداعا سوق الأحد ·

لأننى سأفتقد حوانيتك حيث كنت ابتاع القمصــــان وأدوات النجارة والبنطلونات بأسعار معقولة · ولأننــى ساحرم من روائك والعابك السحرية وأحاسيسنا الحبيبة فيك ، والتى كان يغذيها المنشدون بأصواتهم ذات النبرات المتحمسة العالية ·

وداعا سوق الأحد ·· حياة ونضالا ومذاقا ونكهــة تايلاندية فريدة(١١) وداعا ·· بلا غضب،أو دموع،فلا عزاء

---

(١) صحفى من تايلاند

حيال حزنك أو الآم قلبك الذى يموت الآن ، كما تموت شجرة عتيقة معمرة ·

وداعا ·· وسأتذكرك ·· ولا شىء آخر ·· »

* * *

سوق الأحد ··

يضج الآن بالحياة رغم أن الساعة قد قاربت على الخامسة مساء ·· يبدو أن السبب هو أن يومى السبت والأحد هما يوما عطلة رسمية · ومن ثم فانها فرصة متاحة لكل انسان سواء كان يهفو الى اشباع نهم الى اريج حياة قديمة ، أو يهدف الى شراء ما يلزمه بأسعار معقولة ·· أو يود زيارة السوق لمجرد المعرفة والمتعة (كحالى أنا) · نعم فرصة متاحة للحصول على ماتريد ··

وعند بائع كتب توقفت ·· بحثت عن كتب باللغة الانجليزية وسط تلال منها باللغة التايلاندية ·· ولحسن الحظ ، وجدت نسخة من رواية (الاعماق) التى عرفت طريقها الى الشاشة الفضية ، لتتحول الى فيلم رائع ، أما (شاو) فقد راح يقلب صفحات مجلة جنسية مليئة بالصور العارية ·

تركته مشغولا بما وجد وشغلت بحديث مع الشاب التايلاندى ·

قلت :

ـ ما رأيك فى هذه الرواية ؟

ـ رائعة ٠

ـ هل قراتها ؟

ـ نعـم ٠

ـ مامستوى تعليمك ؟

ـ أنا طالب فى الجامعة ٠٠

ـ رائع ، كم جامعة فى تايلاند ؟

ـ تسع جـامعات ، اضافة الى (٣١) كلية تــدريب عملى ٠

انتهى (شاو) من تقليب المجلة ، فنقدت البائع المثقف ثمن الرواية ، ومضيت ٠

***

ـ آه لو أن معى نقودا اكثر ٠٠

قال (شاو) وهو يبتلع السـوق بعينيــه اللتين زاد اتساعهما رغم انهما ضيقتان أصلا ٠

ـ يا (شاو) ٠٠ اليك هذه النصيحة ٠

ـ هات ٠

ـ « الدنيا يا (شاو) مملوءة بما يكفى حاجتنا ، لا بما يكفى جشعنا » ٠

ـ هه ٠٠

ـ ماذا تعنى ؟

ـ النملة أفضل واعظ لا ينطق بأية كلمات ٠

ـ (شاو) ٠٠ اسمع ٠٠ ان قائل نصيحتى لم يكن نملة ٠٠ بل كان رجلا عظيما ٠

ـ ومن هو ؟

ـ انه المهاتما غاندى ٠٠ هل سمعت عنه ؟

ـ سمعت عنه قليلا أما عن أصحاب الملايين فقد سمعت أكثر ٠

* * *

أمام الفندق ، حين خمد محرك السيارة ، ترجل (شاو) ، وفتح لى الباب ، فأعطيته ثلاثمائة وخمسين « بات » فابتسمت أسارير وجهه وقال :

ـ لن تتهرب الليلة من السهر معى لقد وعدتنى ٠٠ أليس كذلك ؟ تذكرت تفاصيل الاستعراض الجنسى التى رواها لى (شاو) ، والتى كان هو بطلها مع الفتاة

الأوروبية الخليعة ، فشعرت بخجل لا حد له ، من مصاحبته في سهرة عامة ٠

وقلت :

ـ اغفر لي ٠٠ فانني لن استطيع ٠

ـ ولماذا ؟

قال ذلك وخيبة أمل ينضح بها صوته الأجش ٠

ـ لأنني مسافر غدا ٠٠ الى « باتايا » ٠٠

فمضى (شاو) مكفهر الوجه ، أما أنا فقد رحت أعد حقيبتي استعدادا للرحيل ٠

* * *

الحلقــة السابعة

((باتايــا))
أضــواؤها حمــراء

لم أكن اعرفهما قبل أن اتوجه الى مصيف « باتايا » ، ولكنه سوء الحظ وتعاسة الطالع • فقد أدركت منذ البدء أنه من المحتم على أن العب دورا ، بل عدة ادوار ، كى لا يتصادما وكى لايقع مالا تحمد عقباه ، خاصة وانهما عربيان ، وان كان الأول « اقرع » والثانى « احول » و •• ولله فى خلقه شؤون •

وقد جمعتنى بهما صدفه عمياء ، اشبه بالمؤامــرة • اذ فى نفس السيارة الكبيرة المكيفة ركبنا ، وفى ثلاثـــة مقاعد منها تجاورنا،وعلى امتداد تسعين ميلا من (بانكوك) الى (باتايا) تعرفنا ، وتحدثنا •• ثم اختلفنا ومن هنا ولد دورى ، وبدأت تعاستى •

قال الاقرع :

ـ أين تقع هذه الباتايا اللعينة ·· أربع ساعات ولم نصل ؟

فحدق فيه الاحول على الفور وقال :

ـ هل أنت مجنون ·· لم يمض من الوقت سوى ربع ساعة ·

قطب الأقرع مابين حاجبيه بعد أن نظر فى ساعته التى سرعان ماوضعها تحت انف محدثه وقال :

ـ أنظر أيها المجنون ·· انها تشير الى الثانية عشرة · وقد بدأت الرحلة فى الثامنة ·· أليس كذلك ؟

فقهقه الأحول وقال فى شماته :

ـ لو كنت مكانك لقذفت بها من النافذة ·· انها ساعة مخرفة مثلك ·

ـ اخرس ·· أنها رولكس ·

ـ وحدوا الله ياجماعة ·

قلت هذا ، فلم ينطق أحدهما بحرف ، فواصلت حديثى وأنا استمد معلوماتى من كتيب فتحت صفحاته وقلت :

ـ « باتايا » مدينة تقع جنوب شرق بانكوك ، وتبعد عنها تسعين ميلا · وتعد من أجمل مصايف خليج سيام ·

وتستغرق الرحلة عموما اليها مابين ساعتين ٠٠ وساعتين وربعا ٠

هلل الاحول متحديا الاقرع وقال :

ـ أرأيت ؟

فرد الاقرع فى عناد :

ـ لكنها الثانية عشرة ٠٠ وساعتى لاتخطىء ٠

ـ فقلت :

ـ معك حق ٠٠ ولكنك على مايبدو لم تؤخرها ٠٠ الا تعلم أن فرق التوقيت بين الكويت أو الدوحة أو الظهران وبين نظيره فى بانكوك هو أربع ساعات ؟

اقتنع الاقرع،وابتسم الأحول فى انتصار دفعة لاشعال لفافه تبغ لى وله وتردد فى تقديم أخرى الى زميله ٠٠ لكنه فعلها وأعطاه واحدة ٠٠ فهدأ التوتر قليلا ٠

* * *

فى فندق (هوليدى أن) ٣٧٠ غرفة بمدينة « باتايا » استمر الطالع فقد اعتبرتنا ادارة الفندق مجموعة سياحية واحدة ، ومن ثم من باب المجاملة وحسن المعاملة ، أعطتنا ثلاث غرف متجاورة تماما ٠ وما أن دخلت غرفتى حتى قذفت بحقيبتى ـ وليس بجواز سفرى أو نقودى ـ الى

ركن منها ، واتجهت الى النافذة كى استطلع معالم الدنيا من حولى ٠

فأدركت على الفور ٠٠ ان « باتايا » جنة ٠٠ جنة حقيقية ٠ فها هى الفنادق البيضاء ، وعلى امتداد الشاطىء وتعانق المياه ٠٠ مياه خليج سيام ، فى وداعه سرب من البجع الأبيض ، يمضى بين عالمى لونين هما الأزرق والأخضر واذا كان البحر من هنا يهبك متعة الاحساس بالجلال والصفاء ، فأن الغابة النابضة بالحياة تمنحك الشعور الدافق بعذرية وطهارة عالم فطرى لم يلوث بعد ٠

وكى اتخلص من أرهاقى ، غطست بعد برهة فى الحمام ، تاركا المياه الساخنة تروض صلادة الاحساس بفقدان التمتع بمعالم الطريق مابين بانكوك وباتايا ، وسامح الله كلا من الاقرع والاحول ، فقد قطعت الطريق كله دون أن اتذكر غير رؤيتى لقرية « سى راشا » ، حيث تقبع هناك على يمين طريقها مصفاة نفط ، وعلى يسارها محطة اتصال غير الاقمار الصناعية ٠

* * *

حوالى الساعة السادسة مساء ، صحوت على انفجارين ٠٠ احدهما التليفون ، والآخر باب الغرفة ٠٠ وكان الرنين وقرع الباب مستمرين فى عنف متحد ،

جعلنى أهب من سريرى لأضع حدا لقرع الباب الذى ما أن فتحته حتى دخل صديقى الاقرع هادرا :

ـ هل أنت ميت ؟

وطرت نحو التليفون ليفاجئنى صوت الأحول كالزوبعة قائلا :

ـ هل أنت أطرش ؟

ولم اكن ميتا ولا أطرش ٠٠ بل كنت تعيس الحظ تماما ٠ ولهذا هبطت معهما الى ٠٠ المطعم ٠

* * *

« باتايا » ٠٠ فى الليل شعلة من الأضواء الراقصة كمياه خليج سيام ، وشارعها الرئيسى بمبانيه وملاهيه ومطاعمه٠٠يشبه الى حد كبير كورنيش الاسكندرية،والى حد ماكورنيش كل من مدينة الدوحة أو مدينة الكويت ٠٠ لكن الفرق هائل هنا ٠٠ لأن « باتايا » لاتنام ٠ والسبب عائد الى كون مدن الخليج العربية مدن محكومة بالتقاليد ٠٠ تقاليد الدين ، وتقاليد معسكر العمل ، اما هنا فى « باتايا » فلا حدود لأى شىء ٠٠ فكل شىء مباح ٠٠ لأنها مدينة ترفيه بلكل ماتعنى الكلمة من معنى ٠

وبين الظلال ٠ والأضواء وأشجار جوز الهند والسفن الراسية وعلى هدهدات الضحكات واصداء الطبول

وشلالات من الغناء المحلى والغربى ، مضينا صفا واحدا يقودنا « الاقرع » لأنه كما قال «شرطى» وله أنف لايخطىء (مثل ساعته تماما) مواقع الانس والطعام الجيد • ولما كان (الأحول) جائعا بدرجة كبيرة فقد صمت ، مدخرا عناده وصياحه الى وقت آخر • وابتعدنا عن الفندق ، لنصبح فى قلب جنة الليل • وطالعتنا حشود من الأسماء :

« دينوس ، هاربر لايتس ، ساندبوكس ، نيوسويت ميرت ، ميلانو هوفبرين » •

ولما كنت مهتما بقراءة كل نشرة تقع بين يدى ، فقد تذكرت أن افضل مطعم فى « باتايا » هو مطعم (باربوس) لأنه انشىء فى عام ١٩٥٣ ، ولأنه اولا واخيرا يقدم افضل انواع السمك •

تذكرت هذا وذكرته لصديقى فقال الأحول :

ـ اليه فورا •

وقال الأقرع :

ـ أين هو أولا ؟

ومضينا نبحث عنه ، والغريب أن الأحول هو أول من رآه ودخلنا •

* * *

ثلاثمائة (بات) دفعناها بالتساوى ، وهى تعادل ١٥ دولارا فقط · لكن ماتناولناه من أسماك وخضار وفواكه ومشروبات (برينه) لايمكن أن نحصل عليه فى الدوحة مثلا بأقل من اربعمائه ريال · دفعنا وخرجنا ·· لكن الليل مازال فى بدايته ··

ـ كيف ننام فى بلد لاتنام ؟

قال الأقرع ، فتلفت الأحول ماسحا البارات والمطاعم وبنات الليل بناظريه ، ثم غنى بصوت اجش :

ـ « مر ظبى سبانى ·· »

فلمحت اكثر من وجه يلتفت نحونا ، ومن ثم أدركت اننا لسنا العرب الوحيدين هنا ، ولكن المدهش حقـا ان مايحكم السلوك هنا هو جو (باتايا) وتقاليدها ·· لذا ·· فكل يغنى على ليلاه ·· وآه من ليلى ·· ومن الليالى ··

* * *

« لاأحد ينام وحيدا فى « باتايا » · قاعدة تحكم الليل في تايلاند كلها ، وتتجسد فى (بانكوك) ، كما تتضح بصورة اكثر اغراء فى (باتايا) · اذ مايكاد السائح يضع قدميه فى أى ملهى أو صالة رقص ، أو فندق ، حتى تنهال عليه ـ عروض ـ شتى ·

وكلمة « مساج » تعنى هنا « ممارسة الحب » مع من تختارها · والظبيه هنا لا (تسبيك) ، ولكنها قد « تسيك

ان دعوتها الى مائدتك دون ان تنتهى الدعوة بدعوتها الى مخدعك .

وفى الحقيقة . وهو أمر مؤسف ان السائح هنا يجد نفسه وجها لوجه أمام « أسواق الرقيق » الحقيقية التى طالما سمع عنها ، أو رآها ان كان قد عاصرها .

لماذا ؟

لأن فتيات المساج ، والحمامات التركية والسونا .. وغيرها من أسماء ماهى الا « مصائد أسماك بشـــرية » وأسواق نخاسة بكل معنى الكلمة . وقطيع الفتيات (وليس قطيع الحيوانات) متوفر بدرجة محزنه (انسانيا) أينما توجهت . ومن أبسط الامور ان تدخل محلا للمساج ، لتجد عشرين أو ثلاثين فتاة .. كلهن جالســـات داخل قفص زجاجى ، وكل منهم تحمل رقما ، وماعليك الا أن تختار وتدفع .. وتصبح بالتالى غير وحيد .

وهذه المهنة المستترة ... هى (بغـــاء) و (رق) حقيقيين . يمارسهما ويشرف عليهمـا عناصـــر وطنية ، وعناصر أمريكية وفرنسية ويابانية وايطاليـــة . وكلنا يعرف ماتتناقله الصحف من انباء (توريد) فتيات بانكوك الى اوكار الرذيلة فى المانيا تحت ستار الزواج أو العمل أو السياحة .

والأمر هنا باختصار يجعلك تؤكد ان الحصول على

علبة تبغ امريكية ربما يكون أصعب من الحصول على فتاة وخمسة وعشرين دولار على الكثر تقدير تعد كافية تماما بل مرضيه ومجزية مقابل ليلة كاملة ٠

ولا مجال للتساؤل عن الأسباب ٠٠ أسباب الانحراف المذهل هنا ، لأن الدولار الامريكى هو المحرض ، والفقر سبب من اهم الأسباب ٠

واذا كانت امريكا كما قال صديقى (كاوسونج) فى بداية تعارفى معه : قد جعلت من تايلاند جزيرة للترفيه والاستجمام ، وان الحرية الوحيدة المضمونة فى تايلاند هى حرية البغاء ، فان قوله هذا وبعد رؤية عين محققة ، يغدو اقترابا من الحقيقة بعينها ٠

* * *

فى ملهى ٠٠ ليلا ٠٠

موسيقى مدوية ، واناس مخمورون يحملون خارجا ، والساقيات يدرن كالفراشات مقدمات عروضهن وخدماتهن للزبائن على أمواج موسيقى غربية صارخة ٠ وتفرغ زجاجة ، وتوضع أخرى مكانها فورا ٠ لكن ماذا يحدث بحق الجحيم ؟

اجساد تتلوى ٠٠

فتاة تراقص فتاة ، وصبى يراقص فتى ، وخمس فتيات

يتحدثن ·· يضحكن يجالسن انفسهن فى انتظـــار زبون موسر وجرىء وشيق ·

وفتاة أخرى ترتدى كالراقصة ، نصف فستان ،تمضى مترنحة نحو المغسلة ، واخرى تتجه نحو رجـل وتهمس قائلة :

« حبيبى ·· اجرنا هنا قليل ، هل يمكنك اقراضى « ١٥٠ بات » ؟

ويلوح الرجل بيديه رافضا ·· ثم يضم فتاه بجواره الى حضنه بزنده القوى ··

وتجىء أخرى ··

ـ ماراًيك ؟

ـ أنا اعتذر ياسيدتى ··

و ·· واصرخ :

ـ كشف الحساب ··

وادفع ، لاخرج ·· وحــــيدا ·· لكن أين الاقــرع والأحول ؟

* * *

الأحول ، بعين واحدة نصف مفتوحة ، أما الأخرى فقد

تحولت الى كتلة لحمية زرقاء متورمة · والأقرع مشجوج الراس متوهج العينين ··

ـ ماالذى جرى ؟

سألتهما ، فى الصباح ، بعد أختفائهما المريب ، فصرخ الاثنان فى صوت واحد ·

ـ وقعنا فى كمين ·

وعرفت أنهما اصطحبا فتاتين ـ أو هكذا كان ظنهما بادىء الأمر ـ لكن اكتشاف الحقيقة جاء متأخرا ، اذ لم تكن الفتاتين سوى مخلوقين من « الجنس الثالث » غررا بالأحول والأقرع وضرباهما ·· ثـم جرداهمـا من ·· النقود ·

* * *

فى جزيرة (مارلين) وهى جزيرة مهجورة الا من بعض أكواخ صيادين تايلانديين بسطاء جدا ، فقراء جدا ، لكنهم أمناء الى أقصى حد · هناك انزلنا القارب الآلى · بعد رحلة استغرقت ثلاث ساعات ، دفعنا مقابلها (ثلاثمائة بات) ومن ثم رحنا نستمتع بدفء الشمس ، وبرودة المياه · ولما كان البحارة قد سبق وأن حذرونا من الابتعاد عن الشاطىء ـ فالجزيرة مهجورة وموحشة فقد رحنا نقطع الوقت فى التعارف والحديث ·

.. رجل مجفف كعود القصب ، سألنى وهو يفرك شعره الاشقر الذى يخالطه الشيب :

ـ ماعملك ؟

ـ صحفى ٠

ـ من اين ؟

ـ من فلسطين ٠

سمع ذلك فمد يده يصافحنى فى حرارة ، واخبرنى أنه من المانيا الغربية سبق وان عمل فى فلسطين قبل النكبة. وأدركت أنه لولا الخوف ـ من المخابرات الصهيونية او الالمانية ـ لصرخ بأعلى صوته ٠

« انا هتلرى ٠٠ انا نازى » ٠

* * *

فتاة من السويد ، تعمل مدرسة فى استوكهلم ، لكنها تصلح لأن تكون راقصة بجسدها البرونزى المضىء المتدفق انوثه وحياة ٠٠ قالت لي :

ـ اسمع ٠٠ ان حياتكم اجمل من حياتنا ، واتمنى أن أكون زوجة عربية ٠

ـ لماذا ؟

ـ لأن عمــل المرأة قاتــل ·· قاتل ·· فى الدول الصناعية ·

ـ لكنــكم تدعون ان نســاءنا العربيات جــوارى ورقيق ··

ـ انا مثقفة · واعرف عنكم الكثير · وعموما جارية مع رجل يحبها وأولاد ·· يحترمونها طول العمر ، افضل من جارية فى مصنع أو مؤسسة ، وأنا ·· مدرسة لأننى رفضت أن اكون امرأة آليه ·

* * *

لما كان الأقرع والأحول لايعرفان من مفردات اللغــة الانجليزية مايزيد عن عدد الأصابع · فقد قمت بدور المترجم وفى قسم الشرطة ابلغنا عن حادثــة الســلب والنهب والضرب ·

وبعد يومين ·· عادت النقود المسلوبة لكن آثــار الضرب مازالت باقية · وعندما خرجت مع صديقى من قسم الشرطة ·· قال الأحول :

ـ من حفر لأخيه حفرة وقع فيها ·

فرد الأقرع :

ـ اذا كان الغراب دليل قوم ·

ولم أعرف حتى الآن من قاد منهما الآخر الى التهلكة ٠

* * *

فى طريق العودة ٠٠ من جزيرة (مارلين)(١٣) اشار البحار التايلاندى بيده النحيلة نحو جزيرة لاتبعد الكثير عنا وقال :

ـ هذه جزيرة الملوك ٠

ـ خذنا اليها ٠

صاح كل من فى المركب الآلى وهى متجهة صوب ٠٠ « باتايا » ٠

ـ الوقت متأخر ٠

ـ اذن أى ملوك هم اصحابها ؟

ـ أوه ٠٠ هنا قصور لملك نيبال ، ملك الاردن ، ملك المغرب ، وملك ايران ٠

ـ الشاه له قصر هنا ؟

ـ نعم ٠٠ الشاه ٠٠ له قصر فخم هنا ٠

ـ والدخول الى الجزيرة ٠٠ أمسموح به ؟

ـ لا ٠٠ الا بتصريح ٠

* * *

عند خياط هندى ، مقيم هنا في « باتايا » ٠٠ منذ

عشرين عاما لم تعجبني الملابس الجاهزة ، فما كان من صاحب المحل ، الا أن اخذ المقاسات ، وقال لى :

ـ بعد ٢٤ ساعة ستستلم كل شيء جاهزا ·

ـ وعد حقيقى ·

ـ ثق بى ياسيدى ·

وبعد ٢٤ ساعة تماما كانت القمصـــان والبنطلونات جاهزة · وهو أمر دفع الأقرع والأحول الى تفصيل حشد منها ·

***

كاد الأحول والأقرع ان يقعا فى مصيبة جديدة ، والأمر ببساطة انهما كانا يساومان بائـــع « المـــاس والزمرد » المتجول على شراء عدة قطع · ولحسن الحظ ادركتهما قبل أن تتم الصفقة ، فالباعة هنا لايبيعون حجارة كريمة حقيقية والمغفل وحده من يقدم على شراء شيء منهم ·· لانها مجرد قطع من زجاج ملون ·· وعندما ابتعد البائع غاضبا سالنى الأحول :

ـ كيف عرفت انها من زجاج ؟

قلت والأقرع يحمد الله :

ـ بالنظـر ·

فابتسم الأقرع وقال :

ـ لا (حولِ) ولا قوة الا بالله ٠

ثم قهقه ، فتكهرب الجو ، لكنى بددت شحنة عراكهما بالذهاب الى محل للمجوهرات ٠٠ وهناك قال لنا البائع :

« فى تايلاند يوجد ٢٠٠ ألف عامل لقطع الاحجار الكريمة : وأهمها هنا الياقوت الأسود والأخضر ، اما الزمرد فيأتينا من باكستان والهند ٠ كما أن بورما وسيريلانكا وكمبوديا ٠٠ تعد من اشهر البلاد فى مجال تصدير وانتاج الاحجار الكريمة ٠٠ ونصيحتى ٠٠ لاتشتروا ابدا أحجارا كريمة من الباعة المتجولين ٠

* * *

أنا ٠٠ والأقرع والأحول ٠٠ لانمثل النماذج العربية فى تايلاند ، فهناك من هو أدهى وأمر وألعن ٠٠ وما اكثر الحكايات عنا وما أكثر الانتقادات ٠٠ ولكن اية حكايات تلك ، واية انتقادات ؟



الحلقــة الثامنــة

وجوه .. من هناك

من المؤكد أن الأقرع والأحول .. وأنا ، لانمثل كل النماذج العربية فى تايلاند ، وان هناك حكايات وانتقادات تحيط بنا ـ كعرب ـ كحزام نووى صحيح أن هناك من يعشقون القوة النووية ، ولكن قوة وجود الظاهرة العربية السياحية ، فى اى بلد ، ليس منشؤها الذرة ، وانما النقط الأسود كلياليناا وخيامنا ـ السياسية ـ وسمعتنا . ولقد لمست كم هى قاتمة صورة العربى فى جنوب اسيا ، اننا باختصار قوم (نهبب) نلوث من يحتك بنا .

واذا كان من الممكن تشبيه الوجود العربى فى جنوب شرق أسيا أو غيرها .. بالزجاج ، فان زجاجنا العربى هناك قبيح ومهشم ، لأنه ولسبب بسيط لا يشكل اطــارا لنشاط ثقافى ، ولا يتواجد حيث تتوهج النقط الحضارية

من اوبرا أو متاحف أو مكتبات ، وانما يتكـــوم كله فى أماكن الشبهات من بارات وملاه · ومن هنا يصدر عـدم الاحترام والتقدير ·· حتى لو تحول الوجود « الزجاجى» العربى الى « الماس » ·

***

واذا كان التعميم خاطئا عند الحكم على ظاهرة ما لأن هناك دائما القاعدة والاستثناء ، فان الاعتراف أيضا بالحق فضيلة ، ونقد ذاتى لايهدف الى التجريح أو الاحباط، لأن قدرنا مرحليا ، ان نعانى من خناجر التخلف صحيح انه لاقانون حتى الآن يعاقب على التخلف ·

ولكن هناك القانون الطبيعي أيضا ، ولا فرار من أسره · واذا كان هذا القانون يطبق بشكل اوتوماتيكى نص « البقاء للاصلح والأقوى » ·· فكم منا ياترى يصلح للبقاء ؟

***

« لو احببنا السماء ، كما نحب النساء ، لاصبحنا كلنا قديسين » ·

قول لكاتب غربى ، تذكرته وأنا ازور صديقا لى فى « جريس هوتيل » بمدينة « بانكوك » · كان مريضا لسبب غريب · فقد أصيب بالهزال والضعف ، لأن المسكين اعتقد أن كل قطعة لحم اصلها خنزير ، وان أى دهن هو دهن

خنزير • ولما كان متدينا فقد عاش على البسكويت والشاى، لمدة أسبوع ، فكان ان وقع طريح الفراش ، ولم يكن لديه حل آخر ، لأن كل من حوله من العرب ماكان يأبه بنوع اللحم ، فسواء كان لحم خنزير او قرد فالأمر سيان •• والمهم (الوناسة) وراحة البال ••

وهما هنا فى « جريس هوتيل » متوفران بشـــــكل خرافى • لأن هذا الفندق يعد نقطة تجمع لكل منحرفات المنطقة المحيطة ، ولمعظم محلات المساج والحمامات التركية والسونا ، قبل وبعد أن تغلق أبوابها • اضافة الى اخريات متفرغات لزبائن الفندق • وعندما إخبرونى أن « جريس هوتيل » قد عرب ، وان مديره ومحاسبه وعمال الاستقبال فيه من العرب •• لم أصدق أبدا ، ولكن بعد زيارتين فقط تأكدت أن الأمر بصورة ما حقيقى • ففى المصعد ، أو فى صالة الاستقبال أو فى (الكافتيريا) تطالعك وجوه عربية صميمه • وان اردت حجز غرفة ، فأن أكثر من عربى يدس انفه ليتوسط لك ، وعند الرحيل تجد من يودعك ، وخرجت من الفندق •• وصورة العقال العربى تخيم فوق ادارة « جريس هوتيل » •• الذى عربوه دون أن يدرى • وهو أمر جميل ، لكن السىء والمؤسف ، ان السكارى من العرب هناك ، يقدمون لك مجددا صورة المسطول الصينى أيام لعنة الافيون الغابرة فى الصين الشعبية •

* * *

في كثير من شوارع « بانكوك » يمكنك ان تفرح فجاة وخاصة عندما تلمح اعلانا أو اسما مكتوبا باللغة العربية. وما أكثر ما قرأت « اهلا بالزبائن العرب » و « لحوم على الطريقة الاسلامية » .

و « هنا توجد الكبسه » . اذن فاللغة العربية تزحف مع السائح العربي ، وتفرش تسهيلاتها ولكنها تسهيلات فادحة الثمن على أية حال .

* * *

هل أصدق ما أرى ؟

فتاتان عربيتان تتجولان في منطقة «Pat Pong»

وهي أفسد كيلو متر في العالم ، ولا يضاهيها في موبقاتها سوى (حي سوهو) في لندن ، أو منطقة (ساوباولو – في هامبورج .. وتتبعتهما خفية ، لأتأكد ، وتأكدت انهما عربيتان رغم ارتدائهما لاضيق انواع الجينز في العالم .

وصدفه جاء من يخبرني ، بانهما قد حضرتا معه في الطائرة القادمة من (....) ، وانهما حاليا في فندق « مونتين » . ورغم انهما جاءتا بمفردهما أولا ، الا انهما تشاهدان يوميا في فندق هليتون بصحبة عربيين أخرين ..

وان غرفتهما ، حيث تقطنان ، تظل شـــاغرة طوال الليالي . وذات ليله صادفتهما برفقة شـــابين أوربيين

فتذكرت ماقيل « لو فقدت المرأة حياءها ، لفسدت حياة البشر » .

* * *

في « روز هوتيل » رأيته وصادفته . كان رجلا هرما مقوس الظهر وعربي ايضا ، وقد أخبرني انه قادم لعلاج عينيه فصدقته .

وبررت رفضه التجول معي نهارا في شوارع بانكوك، كما بررت عزوفه عن زيارة المتاحف والحدائق والمعابد ، وكان المسكين دائم النوم بالنهار . بدليل وضعه يافطة على مقبض باب غرفته باستمرار .. وقد كتب عليها «رجاء عدم الازعاج » . ولكني ذهلت عندما اكتشفت صدفـــة خروج راقصتين من غرفته ، اذن كان اللعين يموه تحركاته ومغامراته .. بادعاء المرض . وعموما فهو حر .. «واذا بليتم فاستتروا » و .. وقد استتر .. الى حين !! ..

* * *

في مقر شركة « كاثي باسيفيك » للطيران وجدتهما ..

كان الأول في الستين والآخر أكبر منه قليلا ، ولما كنت في عجلة من أمري لاضطراري الى تغيير مواعيد الحجز ، فقد شغلت عنهما ، ولكن صراخهما دفعني لان اتدخـــل وادراكت على الفور أنه من المستحيل ان يحلا مشكلتهما بمفردهما . فالفتاة التايلاندية ، لاتفقه شيئا من اللغــة

العربية ، وهما لايعرفان شيئا من اللغة الانجليزية ولكنهما يريدان السفر ..

وحللت المشكلة فأعربا من شكرهما البالغ ، لكنى سألت الأول .

ـ أى بلاد زرت فى جولتك ؟

ـ هونج كونج ، تايوان ، مانيلا ، سنغافوره ، والآن بانكوك !!

ـ وهل سعدت برحتلك هذه ؟

ـ لم أترك شيئا الا وفعلته . وان بقيت بعض الأمور .

ـ ولم العودة اذن ؟

ـ لأننا افلسنا يا ..

توقف عن الكلام ثم سأل :

ـ من أين أنت ؟

ـ فلسطينى

مد يده مصافحا وقال :

ـ حياك الله يالفلسطينى .. والله لم ينقذنا من مثل ورطتنا هذه فى هونج كونج الا .. فلسطينى ..

* * *

افهمنى ، بعد أن دخل غرفتى مصطحبا طفله ، أنه من سلطنة عمان ورغم اننى لا أعرفه ، فقد قمت بما يجب نحو أخ عربى ، ولكننى لاحظت أن لغته غير طبيعية ، فهى خليط من الانجليزية ، ولغة لا افقهها ، اضافة الى مفردات عربية ورغم شكى وريبتى،فقد حزنت من أجله ومن أجل صغيره عندما أخبرنى أنه لم يذق النوم منذ يومين ، ومن ثم احضرت لهما وجبة كافية ، لكنه باغتنى بطلب الف بات « ٢٠ دولارا» وابدى استعداده لردها اثر عودته الى بلاده ففاجأته بسؤالى :

ـ انت لست من سلطنة عمان ٠

صمت فجاة وقال :

ـ صحيح ٠٠ والحقيقة اننى من عرب زنجبار ، وقد حضرت الى تايلاند مع عائلتى ، لكن نقودى نفذت ٠

ـ لم لم تحجز تذكرة للعودة ؟

ـ لا امكنة خالية فى الطائرة وأدركت أنه لايقول الحقيقة ، فاعتذرت ولكنه بدلا من أن ينسحب فى هدوء قال :

ـ اللعنة على كل العرب ، لقد قصدت السفارة السعودية ، والسفارة المصرية وكذلك العراقية ٠٠ فى بانكوك ٠٠ فلم يستقبلنى أو يساعدنى أحد ٠

قال ذلك ثم صفق الباب فى غضب ومضى ٠

وبعد يومين وجدته بصحبة فتاة اوروبية شقراء ، ولا اثر للصبي ٠٠ والغريب أنه كان يضحك ملء فيه وعندما رويت الحكاية لصديق عربى سألنى قبل ان اروى له بقية الحكاية :

ـ هل اعطيته شيئا ؟

ـ لا ٠٠

ـ عظيم ، فهو نصاب دولى ، ولا علاقة له بالعرب من قريب أو بعيد ٠

* * *

انها فتاة من تايلاند ٠٠

وهى جميلة كبداية كل قصة حب ٠ وقد ابتدات حكايتها مع شاب عربى عندما قال لها « اننى أحبك » فصدقته ٠٠ وتزوجها ، لتمضى معه ستة اشهر فى احدى المزارع فى دولته ، ولما بدأ الجنين يدب فى احشائها سألته :

ـ هل تحبنى ؟

ـ نعم ٠٠

ـ وهل أنت على استعداد للموت فى سبيل الحب ؟

ـ كلا ٠٠ فان حبى من النوع الذى لايموت » ٠

واكتشفت بعدها انها لم تكن زوجة بل خليلة تخلى عنها بعد أن همد الوحش فى أعماقه ٠٠ وطردها ٠

وفى « بانكوك » لاتكف تلك الجميلة عن تذكر الأيام الخوالى ، وتحكى لك عن : محمد عبده ، وطلال مداح ، وشادى الخليج ٠ وتعرف أيضا كيف تشتمك اقذع شتيمة ٠ وكل هذا بلغة عربية واضحة صحيحة٠بل‌انها تعرف أيضا كلمة « سيبالو » ٠ وكتبت فى مذكراتى ، وأنا اســـتعيد ماساتها :

« اين ذلك « السيبالو » العربى ، الذى تخلى عن طفله دون وازع من ضمير أو رادع من دين ؟ ! » ٠٠٠

* * *

انه «شارع القردة»(١٤) ٠٠ فى «باتايا» ، ولكن صاحبنا سعيد بالموقف ٠

وهناك ، لامجال الا للسياح والقردة التى تعيش على مايقدم اليها من الموز والفستق ، ولأنها صغيرة الحجم فان الأطفال لايخشون مداعبتها او الاقتراب منهـــا ، ولكن عليك أن تحذر تماما من تلك القردة الموجودة فى أعلـــى الجبل ، صحيح أن ماتقذفه من حجارة لاتقتل ، لكن ماذا سيحدث لو اصابت عينيك ؟ وماذا لو قذفتك بغير الحجارة او الحصى ؟ ٠

ووسط هذه القردة النشطة ، والعـــابثة ، وقف هو وأولاده ولفترة ماتحول أطفاله الى قردة،مماضطرالقردة الحقيقية الى تسلق الاشجار والصخور • بل أن بعضها قد قذف بنفسه داخل سيارة مفتوحة الابواب والنوافذ • ولم يكتف أولاده بهذا بل انطلقوا ـ وهم ســـبعة ـ مع اكبرهم وهو فى الحادية عشرة الى زهور الشارع فاجتثوها وهنا تدخل بعض الحراس التايلانديين وفى غاية الادب اعربوا عن انزعاجهم فالقردة مسالمة والزهور لم تزرع للتدمير فما كان من صاحبنا الا ان استل محفظة نقوده وقدم منها مبلغا للحارس • الذى رفض اخذها • ربما لوجود دليل الرحلة التايلاندى معنا •

وفى طريق عودتنا ، عرجنا على أحدث مزرعة لزراعة زهور « الاوركيد » الشهيرة ، فوضعت يدى على قلبى • فصاحبنا وقافلة التدمير المرافقة له من أولاده •• لن تبقى ولن تذر •• وحمدت الله •• لأن المزرعـة مقفلة ولأن أحدا لم يسمح لنا بالدخول •

وقلت اخاطبه :

ـ سلمت من موقف عصيب •

فرد بلا مبالاة :

ـ افضل ان يكونوا على حريتهم •

ـ حتى لو دمروا مزرعة الاوركيد أيضا(١٥) ؟

– كل شيء قابل للتعويض ‥ وعندي من المـــال الكثير !

فصمت ، وخاطبت نفسي « الفرق بين السفاح والفنان هو ان الاول يقتل العصفور ، بينما الآخر يعشقه » ٠

* * *

في ملهى « بلوسكاي » في بانكوك حدث أمر غريب ٠ اذ أقفل الملهى ابوابه فكان كل من يمر بأبوابه ، يظن ان صاحبته قد انتقلت الى رحمة الله ‥ أو ان الأمر يتعلق بمخالفة ما ‥ ولكن الحقيقة ‥ كانت ابعد ماتكون عن هذا وذاك ٠

– اذن ما السر ؟

– انهم العرب !!!

هذا ماترويه صاحبة ملهى (بلوسكاى) لكل من يعجبها من الزبائن سواء برقته أو حسن مجاملته ٠ وتؤكد انها لن تنسى أبدا ماتم ‥ ذات ليلة ‥

– ماذا حدث بالضبط ؟

– كان الليل بأوله والزبائن لم يتقاطروا بعد ، وفتيات البار والراقصات العشر يتجاذبن اطراف الحديث ضاحكات ومع كؤوس الشراب كن ينتظرن الزبائن ‥ وفجأة دخل أربعة شبان ونصف ‥

ـ أربعة ونصف ؟

ـ نعم ، أربعة شباب طوال القامة ، اما الخامس فقد كان من نوع « الترانزستور » ومع ضحكاتها تكمل : الأول كان أسود اللون يرتدى على رأسه قبعة تشبه الاهرام ، أما الثانى فقد كان بلا قبعة ولا شعر ، والثالث ذو لحية كثة وان كان أصلع ، والرابع كان أبيض البشرة بسنة ذهبية · أما النصف االأخير وهو الخامس فقد كان أشبه بالمثل ميكى رونى فى شقاوته وعبثه وهياجه ·

ـ ثم ماذا ؟

ـ نسيت أن أقــول ·· انهم كــانوا يحملون الات موسيقية غريبة · بعضها مثل بطيخة كبيرة ، وأخرى مثل صينية بها قطع صغيرة على حوافهــا ، ثم طبلة · (كانت تعنى بذلك : العود ، والدف « الرق » والطبلة الصغيرة) !!

ـ فرقة موسيقية اذن ؟

ـ لا أدرى ·· لأنهم لم يطلبوا عملا ··

ـ ماذا طلبوا ؟

ـ اغرب ماسمعته فى حياتى ·

ـ ماذا طلبوا ؟

ـ طلبوا منى أن أغلق المحل عليهم ٠٠ وقد كان ٠ وابتدأت المظاهرة ٠

ـ كيف ؟

ـ أقفلت الملهى،وبدأت كؤوس الشراب تفرغ بسرعة مخيفه ، وما ان ٠٠ انقضت ساعتان ٠٠ أو ثلاث حتى قذف الأول بقبعته الهرمية الى سقف الملهى ٠٠ أما الثانى فقد غسل صلعته بالبيرة ٠٠

ـ الله أكبر

ـ ماذا تقول ؟

ـ اعبر عن دهشتى ٠٠ استمرى ٠

ـ اما الثالث فقد خلع معطفه وقميصه وظل طوال الليل عارى الصدر !!

ـ وماذا عن الرابع ؟

ـ دفن لحيته في صدر راقصة ٠

ـ والنصف الآخر ؟ !

ـ آه ٠٠ كان ألعنهم بلا جدال ، واشـــدهم تحملا للشراب ولكن ٠٠ نسيت أن أقول : أنه كان يحمل معـه عقدا غريب الشكل فى نهايته ذؤابه ٠

ـ هذه مسبحه ٠

ـ المهم أنه لم يتركها حتى وهو يترنح وراء الميكرفون ·

ـ وماذا كان يفعل وراء الميكروفون ؟

ـ كان يغنى ·· وان لم أفهم بالطبع شيئا ·

ـ كان يغنى ؟

ـ وكان الآخرون قد جردوا آلاتهم ·· وبدأت أسمع أغرب موسيقى وغناء فى العالم ·· وللحق أقول ·· كانت موسيقاهم راقصة ·· وذات وقع يحرك الاوصال !!

ـ كيف تم ذلك ؟ !

ـ بعد أن سكروا كادوا يتجردون من ملابسهم ، وكذلك الفتيات الراقصات · أما عازف الكاباريه فقد سقط نائما مخمورا بعد ان تجرع زجاجتى خمر شديدتى المفعول ·

ـ على حساب من ؟

ـ على حسابهم !!

ـ وهل خرجوا أربعة ونصف ؟ !

ـ لا ·· كانوا سته ·

ـ ستة ؟ !

ـ نعم ، فأن « الترانزستور » كان عبارة عن ثلاثة

شياطين مجتمعه فى جسد واحد ، كان سكيرا ، وكان مطربا وكان ملاكما ··

ـ ملاكما ؟ !

ـ نعم فبعد أن استبد بهم السكر تشاجروا ·· فحطموا المحل · ولكن الفتيات تغلبن عليهم ·· بالطريقة المعهودة ·· وغمزت بعينيها ثم اشارت بيدها اشارة داعرة ·

ـ وهل دفعوا كما يجب ؟ !

ـ بل قل دفعوا بشكل يفوق دخلى لمدة شهر !! انهم اغنياء ·· لكنهم مجانين ، هل تسمح لى بسؤال :

ـ اسالى ··

ـ هل أنت عربى ؟ ··

صمت برهة ، وهى تحدق فى وجهى ، ثم قلت :

ـ أنا من جمعية « الرفق بالانسان » ·

انتهت اقامتى فى تايلاند ، لان تأشيرة الدخول لاتسمح بالبقاء أكثر من خمسة عشر يوما ، ومن ثم اعددت العدة لمغادرة بانكوك ، ولكن الى أين ؟ سؤال القيته على أكثر من شخص ، فاجمع الكل على ان سنغافورة مدينة ودولة تستحق المشاهدة ·· فتوجهت اليها بالطائرة ·· وهناك رأيت ماهو أغرب · لكن ترى أهو غريب حتى بالنسبة للآخرين ؟

الحلقـة التاسعة

فى ضـوء الجنوب

هاهى سنغافورة اذن !!

ولكن ماهذا ؟ ماهذا النسق الرهيب من البنيان ؟

ثم ماسر هذا الجمال الذى تنبض به أرجاء المدينة ؟

وأى قاعدة تلك التى تحكم سلوك البشر هنا ، فلا يرمون قشة فى الطريق ، ولايدخنون ـ أو هكذا خيل الى ـ وأيضا لا يتشاجرون ؟ !

اسئلة رافقتنى كظلى ، منذ أن استقربى المقـام فى (اكواتوريال هوتيل) (٢٢٥ غرفة) ، بعد رحلة بالطائرة استغرقت ساعتين مابين بانكوك وهنا ٠٠ وظلت كوقـع خطواتى عبر شوارع سنغافورة تلهث باحثة عن سر ما أرى ، وما أراه مذهل وجميل ، لان سنغافوره غابة ومدينة عصرية،هى آسيوية لكنها أوربية(١٦) ٠ وغنية لكنهافقيرة،

وهى « مدينة الأسد » لكنها من جانب أخر « ضوء الجنوب» وهى قطعة من أرض الديانات لكنها بلا دين ·

هل هذا لغز؟

نعم بالنسبة لى على الأقل ، أما بالنسبة لصديقى « راجا » فقد كان هذا كله مجرد شيء عادى ، بل ومقدس أيضا ، تماما كعبادة الابقار التى يمارس طقوسها « راجا» بكل بساطة وتبتل تحيران العقل ·

و « راجا » شاب هندى فى الخامسة والعشرين من عمره ، اسمر البشرة كمعظم الهنود ، طويل الشعر مثلهم، وان تخلى عن الزى الهندى التقليدى ليحشر نفسه ـ دون مبرر ـ داخل قميص وبنطلون،مثله فى ذلك مثل ملايين من · دول العالم الثالث ، تخلت عن ازيائها المريحة الاصيلة لتقلد أزياء نساء ورجال عالم غربى ، تقتلنا صيفا،وتجففنا شتاء ·· وتترك رؤوسنا باسم ـ الموضة ـ عزلاء بلهاء فى مواجهة انفجارات الشمس والمطر ! وقد تعرفت عليه صدفة ، فى مقهى بحى الهنود الذى يقع ضمن دائرة الفقر فى سنغافورة ، ولانه يعمل كسائق لسيارة أجرة ، فقد توطدت صلتى به على امتداد مساحة زمنية تقارب الأسبوع ومن ثم راح يطوف بى معالم (سـنغافورة) ·· حتى غادرتها ·

* * *

ـ « راجا » ٠

ـ نعم ٠

ـ حدثنى عن هذه المدينة

ـ لاباس ٠٠ هيا

وانطلق (راجا) بسيارته السوداء وظهرها الأصفر ـ لون سيارات الاجرة ـ بسرعة معتدلة ، مراعيا كل اشارات المرور ، ولم استغرب ذلك من هندى ، لاننى كم عانيت من بطء سائقى السيارات الهندية فى الدوحة ، وان كنت حتى الآن لا ادرى أراجع السبب الى « معجزة » امتلاك فقير لسيارة ، أم لضعف مستوى الاداء ، أم لقصور فى النظر ، أم ترى ذلك عائد الى طبيعة انسانية خاصة ؟ ! وضحكت فتنبه « راجا » فورا وقال وعيناه ترصدان الطريق ٠

ـ يبدو أنك سعيد ٠

ـ نعم،وهى حالة تصيبنى كلما قدت سيارتك يا«راجا»

ـ اذن لن اتركك لحظة ٠

ـ يسعدنى ذلك أكثر ٠

وضحكت ، وبالطبع لم أقل لصديقى (راجا) ، كل مافى الأمر انه خطر لى فجأة أن سبب بطء السائق الهندى

ريما يعود الى تصوره أنه يعبر شارعا مكتظا ·· بالبقر المقدس ، لا بالبشر التعساء ·

وظلت الفكرة الغريبة عالقة بذهنى ، مثيرة بهجتى ، وأيضا لهفتى لمعرفة حقيقة الديانة الهندوسية · وعندما جلست مع (راجا) وجها لوجه فى مقصف صغير لبيع المرطبات سألت :

- « راجا » ·

- نعم ·

- لم تحدثنى عن سنغافورة بعد ··

- سأحدثك ·· وسأخبرك بما تريد ··

- أشكرك ، ولكن الآن وبلا حساسية أرجو ان تحدثنى عن شىء آخر · تنبه (راجا) وان كان يتابع من طرف خفى فتيات سنغافورة الجميلات ، عبر زجاج واجهة المحل ، وهو أمر استمر حتى بعد ان وضع عامل المحل صحنين من الأناناس امامنا على المائدة ·

قلت :

- «راجا » ·

- أوه ·

والتفت نحوى فى اعتذار مهذب وقال :

ـ اسأل ٠

ـ حدثنى عن الهندوسية ٠

التقط بالشوكة قطعة من الاناناس وابتلعها ، ومضى يرتشف عصارتها فى تلذذ واضح ثم قال :

ـ « الهندوسية هى ام الديانات الهندية ، ولها تعاليم فلسفية تدعوا الى التامل والخير وعدم الايذاء » ٠

ـ « عدم الايذاء ؟ ! »

هذا هو السر اذن ، خاطبت نفسى وابتسمت ، ثم تناولت قطعة من الاناناس ظلت معلقة فى الهواء ٠٠ لأن (راجا) قد واصل الحديث :

ـ « وقد تفرعت الهندوسية مذاهب شتى ، حرفت مافيها من فضيلة » ٠

ـ لماذا ؟

سألت (راجا) ، وابتلعت قطعة من الاناناس آمـلا الاستمتاع برحيقها العذب ولكننى صدمت ، لأنها لم تكن حلوة ، بل كانت قطعة من الملح المركز ، وصدمت اكثر عندما قال (راجا) :

ـ « وعند ذلك اعتمدت الهندوسية على عبادة البقر والشجر والاوثان والثعابين والقردة » ٠

وقفزت كالقرد الى دورة المياه ٠٠ مفرغا كل مابجوفى وعدت محمر العينين كالغريق ٠٠ فحدجنى (راجا) فى دهشة ٠

ـ ماذا بك ؟

ـ تسممت ٠٠ وساقدم شكوى ٠٠

وضحك (راجا) ٠٠ وافهمنى أن العادة هنا : هى تقديم الاناناس وفوقهكمية لاباس بها من الملح ٠

ـ هذا تخريف ٠٠ يشبه التخريف الذى لحق بالهندوسية ٠

ـ وما الصحيح ؟

ـ ان تاكل البقرة بدلا من عبادتها ، وان يوضع السكر فوق الاناناس ٠٠ لا الملح ٠

ضحك (راجا) بشدة ٠٠ فأهتز شعره الأسود الطويل ولمعت أسنانه البيضاء تماما كقميصه ، ثم تقوس ضاحكا حتى غاب رأسه بين كفيه بجوار صحن الاناناس ٠ أما أنا فقد تقوست لا من الضحك ولكن من الألم الذى سرعان ماتبدد و (راجا) يقول :

ـ معك حق ٠٠ لذا فأنا من « السيخ »

ـ « سيخ » فى عينيك وعين صاحب المحل ٠

قلت ذلك بالعربية فسألنى (راجا) :

ــ ماذا تعنى ؟

ــ كنت أتكلم عن « السيخ » ٠

ــ آه ٠٠ « السـيخ ديـانة من ديانات الهنود فى البنجاب ، والكلمة سيخ تعنى (المتكلم) والمتكلم هو مؤسسها فى القرن الخامس عشر٠ويدعو فى مذهبهالىصفاءالديانة الهندوسية الأصيلة ، وتوحيـد الطـوائف ونبذ مالحق بالهندوسية من بدع »

ــ وماذا يدعى المتكلم فى لغتكم الهندية ؟

ــ « البابانانك » ٠

ــ اذن فأنت مؤمن من « السيخ » ؟

ــ نعم ٠

ــ وانا مؤمن بالسكر ٠٠

وضحكنا ٠٠ ونحن نمضى الى الميناء ٠ لاشىء اسمه « الأفق » فى سنغافورة العاصمة ٠

فناطحات السحاب ترتفع فى عملقه مذهلة ، كسد من الحديد والأسمنت ، حاجبه عنك جمال الطبيعة وجلالها ، واينما توجهت فان هذه « الأشجار » الحضارية الخرافية تصطك بناظريك وبوعيك أيضا ، مؤكدة لك ان سنغافورة

جزء من آسيا « على الاطلس » فقط . ولكنها تابعة لمسيرة وحضارة الاطلسى عملا وجهدا وتطلعا ٠

ـ هل هذا غريب ؟

ـ نعم

ـ اذن تذكر دائما أننا فى سنغافورة نتناول الأناناس والملح معا ٠

هذا ماقاله (راجا) لى وأنا أحدق فى « الأسد » المطل على مياه المحيط الهندى ومياه بحر جنوب الصين معا ٠

ثم اضاف :

ولا تنسى أيضا انه مابين (أربعة) أســـماء يتوزع تاريخ سنغافورة ٠

ـ مدينة الأسد)

ـ أهذا هو الاسم الأول يا (راجا) ؟

ـ نعم ٠٠ ولهذا حكاية ٠٠ فانظر حولك تعرف كل شىء ٠ .

ونظرت ٠ سفن عملاقة ، تحمل اعلام مختلف الدول وعمال يهدرون بمختلف اللغـــات ، والاف الأطنـــان من البضائع ، ترتكز على حافة الرصـــيف فى قلق تنتظـر مصيرها ، مابين اكبر عملية تصدير واســـتيراد تتم فى

الميناء الذى يعد رابع أكبر ميناء فى العـــالم والأول فى آسيا .

اكتظاظ انتاجى واستهلاكى ، نعم ، ولكن كل شىء يتم بدقة ونظام أوربى الطابع ، وفى هدوء وصبر له مذاق آسيوى ، ولكن الفرق فى الروح الجوهرية يشبه الفـرق الهائل بين (الذرة) كطعام ونبات وبين (الذرة) كطاقة رهيبة ، وبناء على هذه المعادلة فان سنغافورة تدخل عالم الذرة الطبيعى جغرافيا .

ـ كيف ؟

سألت (راجا) فقال :

ـ لقد اكتشفت سنغافورة عام ١٨١٩

ـ ومن اكتشفها ؟

ـ (سيرتوماس ستامغورد رفلز)

ـ اذن كانت مستعمرة بريطانية ؟

ـ حتى عام ١٩٥٩ .

ـ « راجا » .

ـ نعم .

ـ مامساحة سنغافورة ؟

ـ المدينة أم الدولة ؟

ـ ما الفرق ؟

ـ فرق كبير ، فمدينة سنغافورة التى تأسست عـام ١٨٣٦ لا تزيد مساحتها عن ٢٢٦ ميلا مربعا ويبلغ طولها ١٧ ميلا ، اما عرضها فلا يزيد عن ١٤ ميلا ٠

ـ وماذا عن سنغافورة الدولة ؟

ـ هى أكبر من ذلك ، لانها تضم ٥٦ جزيرة اخرى ، وتشمل جزر كوكس وكريستماس ٠٠ لتبلغ مسـاحتها فى النهاية مجتمعة حوالى ٦١٦ كيلو مترا مربعا ٠

مسحت عرقا تصبب من جبهتى و (راجا) يشير الى البحر قائلا :

ـ نحن لانبعد عن شمال خط الاستواء الا بحوالى ١٣٧ كيلو مترا ٠

تعالت أصوات البواخر مذكـرة ايـاى بخوار الابقار فضحكت وقلت لصديقى (راجا) وأنا أشير الى بواخر تغادر الميناء :

ـ اصواتها مزعجة ٠

ـ ومفرحة أيضا ، فلولا الملاحة والسياحة لما كانت سنغافورة ٠٠ وهنا القلب ياسيدى ٠ هنا يتم تكرير البترول

وتصدير المطاط وجوز الهند ، اضافة الى اعادة تجميع وتصدير الاف المصنوعات ٠

ومن هنا ومن المطار يتدفق على الجزيرة مليون سائح سنويا ٠

ـ ومعظمهم من ؟

ـ من دول الكومونولث البريطانى ٠٠ فنحن عضو به منذ عام ١٩٦٣ ٠

ـ (جوهور) سلطان ابله !

ـ لماذا يا (راجا) ٠

ـ لأنه باع سنغافورة كلها ٠٠ اتدرى بكم ؟

ـ بكم ؟

ـ بخمسة آلاف جنيه فقط لاغير !

ـ ومن اشتراها ؟

ـ ضابط يهودى اسمه (رامكس) وقد تنازل عنها فيما بعد لملكة التاج البريطانى !

وتذكرت وأنا أقترب من الجسر الذى يـربط مابين جزيرة سنغافورة واتحاد ماليزيا حكاية مشابهة تذكرت مافعله احد القياصرة حين باع ولاية (الاسكا) للولايات

المتحدة الامريكية بمبلـــغ ثلاثة مـــلايين دولار ·· فقط لاغير !

فبصقت على جوهور · وعلى القيصر وعلى المقلدين الجدد ــ فى سوق السياسة ــ الذين يحاولون بيع بلادى (فلسطين) بحفنة ضخمة من القمح والدولارات ، متسترين بهوانهم وضعفهم تحت خيمة اسمها ·· السلام ·

« شونان » هكذا سماها اليابانيون ·

اسم جميل لجزيرة سنغافورة ، يعني بالعربية « ضوء الجنوب » ولكنه اسم يحمل ذكرى الدمار والاحتلال وحرب طاحنة دارت رحاها هنا ، مابين عامي ١٨٤٢ ، و ١٩٤٦ ·

وفى متحف الشمع بالجزيرة ، أقيم معرض يجســد تنازل القادة اليابانيين عام ١٩٤٦ بعد هزيمتهم فى الحرب العالمية الثانية عن الجزيرة وتوقيعهـــم على وثيقة هامة بهذا الشأن لصالح الامريكيين والحلفـاء ·· ليســتولى عليها البريطانيون مجددا · شاهدت ذلك ، كما شــاهدت سائحة امريكية فى خريف العمر راحــت تتبادل مع شاب اسيوى القبل على مقعد حجرى قرب المتحف فتساءلت :

ــ « من منهما يضخ الدفء والحياة والانتعاش فى جسد الآخر ؟ » ·

ولكن ، أين (راجا) ؟ !

***

في المعبد الصيني وجدته فدهشت · اذ كان مستغرقا في صلاة من نوع آخر · كان يتبتل ويتغزل في جمال فتاة التقطها هناك ، ويبدو ان خلو ســاحة المعبد من الزوار والمصليين قد اتاحت له في ظلال المغيب فرصة رومانسية مناسبة ·· فاستغلها · ولم اشأ الاقتراب ولكنه ناداني بصوته القوي ، فاقتربت ومع التحية والحديث والنظرات ادركت ان لعبة ما قد بدأت فتذكرت (شاو) الذي تركتــه في « بانكوك » غاضبا ·· لكن (راجــا) كان انســانا مختلفا ·· اذ قال :

ـ « ساني » ·· صديقتي ·

ـ رائع · انها حلوة ··

ـ وتحبني كثيرا ·

ولم تحمر خدود « ساني » من الاطراء بل ابتسمت في ثقة وقالت :

أنا « وراجا » سنتزوج عما قريب ·

ـ أأنت هندية ؟

ـ لا من سيلان ·

وسألت « راجا » :

ـ اي اجناس توجد هنا يا « راجا » ؟

فقال وهو يقدم وردة لـ « سانى » :

ـ صينيون وهنود وباكستانيون اضافة الى مواطنين من الملايو ٠

ـ ايهم أكثر عددا ؟

ـ ٧٦٪ من السكان هنا (عددهم ٢ر٥ مليون نسمه) صينيون ، و ١٥٪ من الملايو ، والباقى وهم ٩٪ فانهم هنود وباكستانيون ومن سيلان واجزاء اخرى من العالم ٠

ـ الا يوجد يهود هنا ؟

ـ نسبة قليلة جدا لكنها مؤثرة جدا فى سوق الأعمال والتهريب والارهاب ٠

ـ هذا مؤكد ٠ فهذا شانهم دائما ٠

ـ طبعا فلهم سفارة هنا أيضا ٠٠

ـ « راجا » ٠

ـ نعم ٠

ـ بعد مدينة الأسد « وجوهور » وشونان ما الاسم الرابع الذى ساهم فى صنع جزء من تاريخ سنغافورة ؟

ـ الاتحاد ٠

ـ اى اتحاد تعنى ؟

ـ اتحاد ماليزيا ٠

ـ الم تبع الملايو سنغافورة بخمسة الاف جنيه فقط لاغير ؟ !

ـ باعها « جوهور » ذلك السلطان الابله ، اما الملايو فانها الأم التى لن تتخلى عن رعاية فلذة كبدها ٠

ـ كيف ؟

ـ صحيح ان سنغافورة منذ عام ١٩١٨ قد استولت عليها شركة الهند الشرقية ، وصحيح انها وقعت فى يد اليابان خلال الفترة مابين ٤٢ ـ ١٩٤٦ ، لكنها عادت الى الملايو خلال عام ١٩٦٣ عندما انضمت الى الملايو لتكون مع « سرواك » و « صباح » ٠٠ اتحاد ماليزيا ٠

ـ ولكن سنغافورة جمهورية مستقلة الآن ٠٠ اليس كذلك ؟ !

ـ نعم ، فقد انسحبت من الاتحاد عام ١٩٦٥ ولم تعد اليه حتى الآن ٠

ـ ابن ضال !

ـ انها لعنة الأناناس والملح ٠٠ هنا ٠

ـ بل قل التمزق بين « شونان » و « الأسد » ٠

ـ صدقت ٠٠ ولكن ٠

ـ ولكن ماذا ؟

ـ أين ستسهر هذه الليلة ؟

ـ ماذا تقترح ؟

ـ « بوجيس ستريت » مدهش وغريب ٠

ـ وماذا أيضا ؟

ـ « تشاينا تاون » منطقة حافلة بالعجائب ٠

ـ واخيرا ؟

ـ وما أكثر مايمكن مشاهدته فى سنغافورة ، فقحذ قل لى ماتريد ٠

ـ أريد العودة الى « اكواتوريال هوتيل » ٠٠ كـى استعد ٠

* * *

الحلقــة العــاشرة

جسد انثى وصوت رجل

فى الليلة الظلماء يفتقد البدر ، وكان « راجا » بدرى وعينى وخريطتى عبر شوارع سنغافورة ·· لكننى افتقدته ولأمر ما لم اعرفه حتى الآن ·· ضاع منى ·

ضاع « راجا » ، ومازلت آمل ان يكون سبب ضياعه وفقدانى اياه ·· خيرا ، رغم احساسى المبهم بأن ضياع (راجا) ربما يكون عائدا الى أمرين :

اولهما اما ان « راجا » قد تزوج » فضاع !!

وثانيهما ربما يكون عائدا الى طريقته البطيئة جـدا والقاتلة ·· فى قيادة سيارته ·· وهو أمر قديكون سببا فى مقتله . تماما كذلك الانسان ـ أى انسان ـ الذى يصر على الالتزام بقاعدة تقول : « فى العجلة الندامة » حتى عندما يواجه أسدا ، فلا يفر بجلده ولا يتحول الى صاروخ

عابر للقارات ·· طلبا للنجاة ، وانما يتمســـك بالقاعدة فيمسك به الأسد ·· مستثنيا اياه من دنيا الاحياء ·· ضاع «راجا» إذن ·· فوداعا ·· ولأبداً ، الآن ، وحيدا ، ولأجوب هذا العالم المسمى « سنغافورة » ولتكن دليلى الدهشة والفضول ·· والجرأة · هكذا حدثت نفسى وأنا انطلق ــ بعد طول انتظار ــ نهارا ، ضمن رحلة يشــرف الفندق على ترتيبها ، وليس فى حوزتى غير آلة التصوير وثلاثين دولارا سنغافوريا (الدولار الامريكــى = ٥ر٢ دولار سنغافوريا تقريبا) اضافة الى تموينى من التبغ !! وقال الدليل :

ــ انتم الآن فوق تل القصدير أو Bukıt tima وهو أعلى تل فى الجزيرة ، اذ ان ارتفاعه يبلغ ١٦٦ مترا ·

قال الدليل الشاب ذلك ، ومضى صاعدا فوق التل · ومضينا ·· سائحون وسائحات ·· (كنت انا اصغرهم سنا ·· وربما افقرهم) نلهث خلفه ·· مبهورين ·

لماذا ؟

لأننا من هذا الموقع المدهش ، شعرنا لفترة بأننا أعلى من ناطحات السحاب ، التى ترقد أسفل التل فى جــلال هندسى لايشوه سحر الطبيعة وانما يكملها · ورحت املأ رئتى بهواء البر والبحر معا فى جوع صحراوى طــال أمده ، وحمدت الله ان الدليل اقترب منى منبها ان اطفى

سيجارتى فى أقرب مكان مخصص لذلك ٠ لأن الغرامة ستكون فادحة ٠ وهى هنا ٥٠٠ دولار بالتمام والكمال ٠٠ فقط لاغير ، وبالطبع ، تنفست بنقاء ، وان تصرفت بغباء حين اقتنصت فرصة انشغال النـــاس من حولى ورحت أقطف الزهور فما كان من الدليل الذى باغتني الا ان نبهنى مع نظرة شذراء قائلا :

« التدخين ممنوع »

« وقطع الزهور أيضا ممنوع »

ولما كنت لا أطيق الاضواء الحمراء وكل اللافتات التى تحمل قيدا تكبل به حرية الانسان تحت شعار ممنوع ، فقد انتهزت أول فرصة وحشوت ثلاثة لفافـــات تبغ بعيدان الكبريت ، وماكاد الدليل يجلس على مائدة فوق التل تاركا السائحات والسياح الكهول يمرحـــون ٠٠ حتى جلست بجواره وقدمت اليه علبة سجائرى ٠٠ تناول واحدة ٠٠ وتردد فى اشعالها ، فانتابنى القلق لكنه سرعان ماشعلها فاشتعلت فى وجهه ٠٠ الذى تجمد برهة ٠٠ ثم انشق عن ضحكة مدوية !!

و ٠٠ وصرنا أصدقاء ٠٠ !! ؟

ــ ما أسمك ؟

سألت الدليل الذى اعجبته اللعبة المفاجئة فقال :

ـ محمد كريم الله

ـ اذن انت مسلم ؟

ـ وكذلك أمى ٠٠

ثم اردف :

ـ وهى من القاهرة

ـ من القاهرة ؟ !!

ـ نعم ٠٠ واسمها « تحية ٠٠ »

ـ وهل علمتك العربية ؟

سألت ٠٠ فقامت على وجهه سحابة حزن حقيقيـة ، واحسست ان هذا الدليل الشاب الذى لايتجـاوز الثانية والعشرين قد كبر فجأة عشر سنوات ٠٠٠٠ يا الهى ماهذا الحزن الضارى ؟ ٠

خاطبت نفسى ٠٠ فخاطبنى :

ـ لاضرورة هنا للغة العربية ، فالصينية والانجليزية واللغة الملايوية هنا ٠٠ ثلاث لغات اساسية ٠

ثم اردف :

ـ لقد ماتت ٠٠

ـ متى ؟

ـ بالأمس .

ـ رحمها الله .. واسكنها فسيح جناته ..

بكى الدليل وهو يتمتم بكلمات متقطعة :

ـ لادين فى سنغافورة .. فأمواتنا المسلمون يدفنون هنا . دون ترتيل للقرآن .. دون عزاء .. دون صلاة .. كم كان بودى لو استطعت دفنها فى القاهـــرة .. لكننى فقير .

* * *

اقصى طول للجزيرة لا يتجاوز ١٧ ميلا لذا فان نهر Sangi seletar الذى لايتجاوز طوله ١٣ كيلو مترا .. يعد أطول نهر فى الجزيرة ، وأكبر قنـــاة مائية فى الهضبة الوسطى التى تبلغ مساحتها (٣٣) كيلو مترا مربعا .

هذا النهر طويل ؛ لكن جارتى النيوزيلندية أطول .. منى ، وهى بساقيها المتلئتين نمشا وشعرا ـ رغم بياضهما ـ قد عقدتنى . كانت تحدثنى عن بلادها وعن زوجهـــا الذى تركته يقطع الأخشاب فى مصنع للنجارةفى«ولنجتون» وعن فستانها السماوى ـ الشفاف جدا ـ الذى ابتاعته من هونج كونج .. وأنا أتابع حديثها وأجرى .. بينما كانت هى ـ تلك الزرافة ـ تمشى الهوينا بمقياسها هى

أما بمقياسى فقد كانت كل خطوة منها تعادل أربع خطوات من خطوات العبد الله !!

وياليت زوجها ·· قطع بعضا من ساقيها ··

وسر قلبى ، رغم التعب ، ونحن نرقى شوارع التل ·· التى شقت بين ثنايا الغابة الحانية المزهرة حين توقفت ·· وتعادلنا · وكى التقط أنفاسى خلعت من رقبتى طوق آلة التصوير ورجوتها ان تلتقط لى صورة ففعلت ومن ثم رحت أدور حولها وهى ثابتة ·· لكى التقط لها صورة ·· وفى الحقيقة كنت اتمنى ان اتحنط فوق الأعشاب ·· لكن الموقف لايسمح بذلك ··

* * *

عاد محمد كريم الى السيارة ·· فعدنا ··

جلس بجوارى فقلت :

ـ لم اخترت مهنة الدليل ؟

ـ لأنها مجزية ··

ـ لم تتعلم العربية ، فكيف تعلمت الانجليزية ؟ !

ـ التعليم هنا مجانى طوال المرحلة الابتدائية (ست سنوات) ثم ان اللغة الانجليزية لغة اساسية كما قلت لك ·

وهنا ، للعلم ، توجد جامعتان ، ومعهدان للتكنولوجيا ·

ـ ماوضع الجندى هنا ؟

ضحك وهو يقول :

ـ الجندية مهنة لا احبها · ومن ثم استرحت من رؤية (٢٠) الف جندى ·· ومن ممارسة حياتهم القاسية ·

ـ قاسية ؟

ـ نعم فالمظاهرات هنا تستدعى أحيانا تدخل الجنود، ثم لا تنس ان مقاومة تهريب المخدرات والسلع تشغل جيشا بأكمله !!

ـ التهريب ·· اهو الوباء الوحيد هنا ؟

ـ والجاسوسية ايضا ·· و ··

ـ وماذا أيضا ؟

ـ دعك من هذا ·· هل ترغب فى المشى فوق الصراط المستقيم ؟

ـ ليس لى خيار ·· وهو مصيرنا جميعا ··

ضحك وقال :

ـ ما اعنيه ·· هل تحب ان تجرب ركوب التليفريك ؟ وافقت ، وركبت ، وليتنى ماحاولت ذلك !!

* * *

ركبـــت العلبة الجهنمية ، بعد ان قطعت التذكــــرة فتقطعت انفاسى وأنا معلق بين السماء والأرض • صحيح ان منظر الميناء لكان مدهشا ، وصحيح ايضا •• ان الجزر والبواخر والغابة تفتح لكنوزها امام ناظريك ، ولكن الـذى لاشك فيه ان كل عوالم الرعب قد انفتحت امام ناظرى حين انقطع التيار الكهربائى عن العربــة التى تجمدت فيهـــا وتسمرت قارئا فى لمح البصر كل ماحفظته من آيات القرآن والانجيل !! فالروح غالية ، والموت معلقا ـ على ارتفاع ١٠٠٠ متر ـ فى الفضاء دون عزاء أو دمعة من صــــديق شىء يجعل الأمر فوق حدود الاحتمـــال • ولكن الحبال اهتزت فجأة ودبت الروح فى العربة اللعينة وفى أوصالى •• ووصلت الى نهاية •• الخط ، هاربا من خطأ فنى كاد يقضى على ، وتذكرت فجأة اننى لم أكن وحدى بالعربة ، وان هناك شابا يونانيا برفقة فتاتين من ســـنغافورة •• كانوا معى •• يواجهون نفس الموقف وحينما أشـــرقت وجوههم ـ على الأرض ـ أمامى ، فرحت ، ولبيت دعوتهم ورافقتهم الى مركز للفنون للاستمتاع برؤية استعراض فنى يقام عصرا •• هناك •

* * *

داخل المركز ، وهو ناد متسع ، نصبت خيمة هائلة ، فوق المسرح المعد للعرض •• ورحت أبحث عن لكرسى ، فلم أجد ، ومن ثم فضلت الوقوف كى أرى •

وتوالت فقرات البرنامج وكلها عادية وان كانت تعطيك فكرة جديدة عن الموسيقى هنا ٠

فالطبول كبيرة والابواق النحاسية قصيرة وصغيرة وتشبه تماما أبواق الحواة من الهنود ٠ وبالفعل كانت هناك فقرة يقوم خلالها الحاوى بالعزف أما الراقصة فكانت ٠٠ ثعبانا من الوزن الرهيب ٠ وتذكرت ماجرى لى فى حديقة الثعابين ببانكوك ٠٠ فحمدت الله ٠٠ اننى بعيد عن الحاوى وعن ثعبانه الذى اخذ السائحون يحنون رقابهم كى يطوقهم الحاوى بفضل ثعبانه ٠٠ فى ظل عدسات التصوير ٠٠ التى تومض مسجلة لحظة نادرة ٠٠ وتجربة جديدة !!

ولما كنت لا أطيق الرطوبة وعسف الحرارة فقد توجهت الى بائعة للمراوح الصينية واشتريت مروحتين بدولارين فقط وظلتا معى فى الحفظ والصون ، حتى وصلت الى « الدوحة » وهناك كان المصير على يد اطفالى الذين عاثوا فيهما فسادا وتمزيقا ٠ ولم يدر بخلدهم اننى قد قطعت آلاف الأميال ، كى احضر هاتين المروحتين مع أشياء اخرى ٠٠ كلها لاقت نفس المصير !!

***

« انت الآن فى قلب الليل » هكذا قال لى الدليل محمد كريم الله بعد ان جلس فى مواجهتى على مائدة فى ركن من اركان « بوجيس » اشهر شارع فى سنغافورة ٠

ـ ماهذا !! ؟

ـ سألت وأنا ارقب افواج السـياح وقد توزعـوا وتكثفوا نساء ورجالا فى مجال الشارع الغريب ٠

ـ هذا « بوجيس ستريت » ٠٠ اجـابنى وعيناه تتفحصان لفافة التبغ التى قدمتها اليه ٠

ـ اطمئن ٠٠ انها ليست محشوة بالديناميت ٠

قلت ذلك فضحك ، وقال :

ـ لاباس ٠٠ لكنك سترى الآن ديناميت اغراء لـم تشهده أبدا من قبل !!

ـ هل سيجرى عرى « ستربتيز » ؟!

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ ولكنك سـترى أجمـل فتيـات فى سنغافورة ونظرت الى ساعتى ـ انها الواحدة صباحا . وافواج السياح مازالت تتدفق حتى لم يعد موضع لقدم وبائعو الصور العارية ينتقلون كفراش غريب حول نيران اضواء اغرب ٠

وتدفقت قافلة أخرى ٠٠

انها مكونه من نساء يتزين بأقصر ملابس عرفتها عين عربى ، وبافقع باروكات صنعت خصيصا فى لون قوس قزح ٠٠

ـ محمد ..

ـ نعم ..

ـ امذا شارع الجمال ؟

ـ نعم ولكنه جمال مذكر !!

ـ مذكر ؟ !

ـ نعم ، فكل هؤلاء الفاتنات .. ماهن فى الحقيقة الا .. رجال .

ـ رجال ؟ .. لاتسخر منى أرجوك ..

ـ ورحمة أمى « تحية » !!

قال ذلك وهب واقفا وغمز بعينيه لواحدة (لواحد) فأتت .. وجلست .. وقالت :

ـ الجلسة بعشرة دولارات .

فقلت :

ـ ما اسمك ؟

ـ ليندا !!

قالت ليندا ، بصوت لم يستطع رغم كل العرى الفاضح ورغم تمرد الثديين النافرين .. ان يخفى حقيقة الأصل

الرجالى وشعرت بان المخلوق المسمى (ليندا) امامى ٠٠ له حسد انثى وصوت (شنب) فتى ٠

ــ هل أنت سيدة ٠٠ ؟ !

تحسس المخلوق « ليندا » صدره العامر وقال :

ــ ما رأيك ؟ !

ثم اردف وهو يضع ساقا على ساق كأعتى عاهرة فى ماخور :

ــ ولدت طفلا ، ولكن فى العاشرة من عمرى ، شعرت بأننى من عالم آخر غير عالم الرجال٠وعندما كبرت٠٠كبر الثدين ٠٠ والردفين ٠٠ و ٠٠ لم يكبر الشىء الآخر ٠٠ لقد انقرض ٠

ــ هل تستطعين الحمل ؟

ــ لا ٠٠ فليس لى رحم انثى ، رغم اننى أجريت عملية لأتحول الى سيدة كاملة كلفتنــــى عشـــرة الاف دولار !!

ــ هل تسمحين لى بأن اتحسس حنجرتك ؟

ومض شىء فى وجهها ٠٠ كالغضب ، لكنها تداركت (تدارك) وقالت فى لهجة ماجنة :

ــ العمق أفضل !!

وانصرفت وأعقب محمد كريم الله ذلك بقوله :

لقد فضحتها ·· لان الفرق ايها الخبيث بين الذكر والانثى هو « جوزة آدم » وقلت فى نفسى :

ــ « كانت جوزتها » نافرة » واخبرنى الدليل ان مسابقات للكات الجمال تقام هنا وان نوادى واماكن خاصة تتوفر لهن (لهم) بشكل كبير وان الشرطة لاتتدخل فى نشاط هذه الاماكن التى يرتادونها برفقة الزبائن ·· من عرب ·· وغرب وشرق !! وقطع حديثنا صوت عربى مجلجل ·

ــ « اخوك يا الحمر ·· »

فقال محمد كريم الله :

ــ امثال هذا العربى ·· من أفضل الزبائن هنا ·· وفى بريطانيا ·

ــ مارايك فى جولة فى « تشاينا تاون » ؟

ــ لامانع · ·ولكن الوقت متأخر ·

ــ لاتخف فعربات الـ (تريشـــاو) متوافرة هنـا بكثرة ·

ــ هيا ··

وظننت اننى سأستقل عربة اثرية أو حنطورا ولكننى

فوجئت برجل يلبى نداء محمد يقترب منا ، ثم آخر ·· ومعهما هذه التريشاو « وهى عبارة عن دراجة عادية ملحق بها صندوق ذو عجلتين ·· يركب فيه السائح ويمضى به السائق ·· الانسان ، بدلا من الحيوان ·

ـ اركب ··

وركبت واستقل محمد عربة أخرى ومضينا مع آخرين نطوف ارجاء « تشاينا ·· تاون » ·· حيث يتركز الوجود الصينى الفقير فى سنغافورة وحيث توجد كل الاشياء ·· ابتداء من الأحذية وانتهاء ·· بالمخدرات ولفت انتباهى أسماء المحلات وهى صينية عادية ، ولكن عندما نترجمها الى العربية مقروءة بالانجليزية فان الضحك والدهشة يصيبانك فورا ·

فبعض المحلات تحمل أسماء مثل : « هوهانج يو » ، وأخرى اسمها : « وى لاى » وثالثة « يوكل مى » ورابعة « دون كى كنج مى » !!

* * *

عند مطعم صينى توقفت (التريشاو) كما طلبت ومع نسائم الفجر الباردة رحت أنا و« محمد كريم الله نتناول طعام الافطار (نكان عشائى) المكون من زعانف السمك وجذور الاعشاب وكوكتيل من الخضروات · ثم طلبت لى ·· ولصديقى محمد ·· صحنين من الأناناس ··

ومضيت التهم قدلع واحد منها ، وسط دهشة البائـع الذى افهمته (عن طريق محمد) ان يترك الملح جانبا ٠ وكدت اشعر للحظات ان البائع يخالنى قادما من كوكب آخر ، والا فكيف يتناول انسان الاناناس دون ملح ؟ !!

* * *

عدت بهذه الوسيلة المسماه « تريشاو » الى الفندق . وكل املى آن يجىء يوم تتخلص فيه سنغافورة نهائيا من هذه الوصمة المسماه « تريشاو » ، لأنها بأصرارها على بقاء انسان فيها ، يقوم بدور الحصان الذى يجر العربة ، وفى القرن العشرين ٠٠ تؤكد أن ناطحات السحاب فيهـا مجرد قرون من شمع ، وان نظافتها الاوروبية الطابع ، مجرد ورقة توت،لا تستر قذارة نظام لايريد ان ينهى ماساة تحول الانسان ٠٠ الى حصان ، تحت ضغط الفقر والحاجة الى رغيف العيش وقرص الدواء ٠

فى اليوم التالى ٠٠ قابلنى محمد كريم الله ٠٠

وسألنى :

ـ ما رأيك فى سنغافورة ؟

ـ جمهورية تتمزق بين الملح والاناناس ٠

ثم اضفت :

ـ انها كمخلوقات « بوجيس ستريت » تائهـة بيـن عالمين ٠

فقال :

ـ صدقت ٠٠ والخلاص هناك ٠٠ فى العودة الى اتحاد ماليزيا ٠

ثم اردف :

ـ الا تود زيارة « جوهرو باهرو » ٠٠ انها تستحق المشاهدة ٠٠

ـ لا باس ٠٠

وابتدات رحلتى الى هناك ٠٠٠ الى ماليزيا ٠

***

الحلقــة الأخيــرة

سلطان .. بلا نساء

على أرض دولتين وقفت فى آن واحد .

الخطوة الاولى كانت فى ســـنغافورة ، أما الثانية فكانت فى ماليزيا(١٨) !!

ورغم ان المسافة لا تتعدى مترا ، تمر من منتصـــف شعرة الحدود بين الدولتين ، الا أن الفارق الحضارى ضخم ومثير . وهو فارق يؤكده هروب ســـنغافورة من اتحاد ماليزيا عام ١٩٦٥ .

وحين سألت قيل لى : ان الوضع يشبه الى حد مـا الوضع الذى كان .. فى الهند وباكستان ، قبل أن تنشطر الى اقليمين سياسيين ، ليضم كل منهمـــا اغلبية دينية معينة .

ليكن .. فنحن نعيش عالما متناقضـا ، يكره التمييز

ويمارسه ، ويلعن الفقر ويخلقه ، ويندد بالرذيلة ووحولها تحت أنفه ، ويتعملق فى عبوره الفضاء ، الى الكواكب القريبة والبعيدة،لكنه فى نفس الوقت ينحط الى الحضيض وهو يحاول اجهاض رغبة شعب ·· كالشعب الفلسطينى فى عبور مأساته بالتحرر والاستقلال ·

نعم ، ليكن ·· خاطبت نفسى ·· وأنا أرى الى الجسر الممتد ما بين سنغافورة واتحاد ماليزيا ، وهو جسر لايزيد طوله عن ١٠٥٦ مترا ، وتمر من فوقه طـــريق برىء ، وآخر للسكك الحديدية ، اضافة الى عـــدد من الانابيب الضخمة التى تنقل المياه (لا النفط) الى سنغافورة ·· لسد حاجتها الى ماء الشرب ، رغم وجود محطات لتكرير مياه المحيط هنا ··

ولفت انتباهى الفرق بين العالمين هنا · المتجسد فى زى رجال الحدود ، فالسنغافورى أنيق وناعم ، أما ذاك ·· الماليزى فهو أجرب الملابس،أشعث الشعر وحتى السيارات كانت تحمل نفس السمة ·

لكن الانتظار هنا لا يطول ، كما هو الحال فى أى مركز حدودى عربى ، فنظرة واحدة الى جواز السفر ·· يتبعها ختم ·· ثم توكل على الله ·· وأهلا بكم فى الاتحاد ·

*** * ***

عبرت السيارة الضخمة المكيفة ، بنا ، الحدود ، الى

اقليم « جاهور » ، أو «جوهور باهرو» وهما اسمان لشيء واحد ٠

وقال دليل الرحلة :

« جاهور » هو أحد اقاليم اتحاد ماليزيا الذى يتكون من ١٣ اقليما (١١ منها فى الملايو ، أما الآخران فهما (ساراواك) و (صباح) ٠

وتبلغ مساحة الاتحاد حوالى ١٢٨ الف ميل مربع ، يقطنها نحو ١١ مليون نسمة ٠

سمعت ذلك ، وأنا ارقب شوارع الاقليم ، والاشجار والبشر ، ثم طفت بناظرى فوق مياه المحيط التى راحت تتموج تحت اشعة شمس ذات نكهة وسحر لاتعرفها الا البحار الجنوبية ٠ حيث المساء كالحلم ، والصباح ملون بأطياف الشفق المتوهج عبر غلالات من الغيوم والرمادية بدرجات متفاوتة ٠

واهتزت السيارة ، فقفزت الى ذهنى حفريات الشوارع فى الدوحة والكويت والقاهرة ، ونظرت ٠٠ عبر النافذة الى الشارع ٠٠ فكان العمال يحفرون ٠

ومع هزة اخرى تأوهت جارتى الحسناء ، التى لم ادرك سر حزنها الغامض الجليل الذى يهوم فوق محياها البرىء ٠٠ فالتفت نحوها قائلا :

ـ ما الذى أزعج سيدتى ؟

هزت رأسها فتهدل شعرها الذهبى ثم استكان كما استكانت وهى تجيب فى شجى :

ـ لا شىء ٠٠٠

* * *

ثم سوت فستانها الطويل ، وأمسكت بآلة تصوير ، على نحو أشعرنى بأنها تحاول الامساك بطيف ذكرى ٠٠

جولة السيارة مستمرة ٠ والصباح مشرق وندى ، وعيون الاطفال ترقبنا فى دهشة خفيفة ، ربما لأنها قد تعودت على رؤية سياح من كل فج ولون ٠ أما النساء فقد مضين فى أعمالهن دون ان يعرننا التفاتا خاصا ٠ وهن عموما ، زيا وجمالا ، لا يختلفن فى شىء عن بنات حواء فى سنغافورة أو تايلاند ٠٠ وان كن يملن الى الطول أكثر ٠ ورغم بحثى عن شىء ملفت للنظر ، الا اننى لم اكتشف شيئا ، اللهم الا ان من يرتدين البنطلونات ، أو الزى الاوروبى الحديث كن قليلات ٠ البيوت ٠٠ كأى بيوت حديثة ، لكنها هنا كالحة البياض ، كما أن نوافذها تشبه نوافذ البيوت الخشبية فى القاهرة ٠، مع نفس الاهمال فى طلائها ٠٠ أو تجديده من حين لآخر ، بعكس ماتجده مثلا فى البيوت البيضاء ، التى تطل عليك كاسراب الحمام من بين الخمائل الخضراء ٠٠ فى تونس ٠

رغم ذلك فان الاحساس ، هنا بعطر المكان وأنفاسه مختلف ، فالتواضع الجليل والهدوء الابى المستكين يضمخ شوارع ، « جاهور » · التى ترقى عربتنا فيها لنطل على مياه المحيط القريبة منا ·

* * *

هذا مسجد السلطان « أبو بكر » ·· وهنا قصره أيضا ·· وبالطبع ليس المقصود ، هنا ، أبا بكر الصديق ، فشتان بين سلطان وخليفة ، وانما هو مجرد تشابه فى الأسماء ·· وان كان يوحى ببعض الدلالة ·

فالمهم الآن اننا فى بلد معظم مواطنيه من المسلمين ، رغم وجود عدد من المسيحيين والبوذيين والهندوكيين ·

ـ تفضلوا ··

قال الدليل ، وهو يقفز من سيارتنا الى الاعشاب ونحن فى رحاب ·· قصر السلطان ومسجده ·

ولما كانت جارتى الحسناء ، ذات الجمال الحزين تجلس فى المقعد المجاور لى ، فاننى انتظرت قيامها كى أتخلص من جلستى الطويلة ·· انتظرت برهة ، لكنها رمقتنى فى حياء وقالت :

ـ « تفضل ·· أو انتظر قليلا » · ولما كان من قلة

الأدب أن أقفز من فوقها ، فقط انتظرت ·· واكتشفت سر هذا الحزن الممض فوق محياها ·

وآه من المرض ·

كانت المسكينة مقعدة ، رغم جمالها وشبابها ، ·· كانت مقعدة ·· اذ جاء من يحملها على كرسى متحرك ·· تدرج فى سيره حتى هبط بها سالمة الى الأرض ·

* * *

قصر السلطان « أبو بكر » تحفة هندسـية عربيـة الطابع ·· يستمد روعته وجلاله من ذلك النسق الهندسى ، الاسلامى ، الذى يتوخى البساطة والجمال · كان أبيض اللون ، بسقف من القرميد الاحمر ·· وسط مساحة هائلة من اللون الأخضر عشبا وشجرا ·· ونخيلا ·

ولكنه ليس ذلك النوع المعهود من النخيل الصـلد العربى ، الذى استمد من قساوة البيئة كل التقدير لظله وثمره وقوة تحمله وبقائه ·· أنه هنا ، نخيل « افرنجى » ·· وللزينة فقط ··

ومضت أضواء آلات التصوير ، وانتشر الباعة من حولنا ، مع رسوماتهم الفنية البديعة ، وزجاجات العصير الباردة ، وحمدت الله على خلو المكان من الشحاذين ·

ولكن أين جارتى الحسناء رغم عاهتها الظالمة ؟

رحت أبحث عنها ، بناظرى ، فكـانت هنــاك على كرسيها . وزوجها يدفع بها صاعدا الطريق المتعرج بين ثنايا الاشجار والممرات الحجرية البيضاء ٠

وفى أعلى التل الاخضر ٠٠ التقطت عدة صـــور ٠ للسيارة والسياح ٠٠ ولقصر السلطان ٠٠ وأيضا لمياه المحيط الداكنة ، وأحسست لفترة أن هناك دموعا تجرى فى صمت وخفية فوق وجهها المتورد الذى يضج بالحياة رغم تجمد الساقين ٠

*** * ***

اخوة من العرب هنا ٠٠ وكانوا ثلاثة ٠

لكنهم من نوع نادر ٠٠ قلما تلقاه فى المدن الغربية ٠ فهم يتحدثون فى هدوء ، ويستأذنون حين يتحدثـون أو يطلبون شيئا ٠ وحتى نظراتهم٠٠لم تكن أبدا فجة أو وقحة ٠٠ رغم وجود سائحات أوروبيات يجعل مرآهـن الدم يغلى فى العروق ٠٠

واقتربت ٠٠ وتعارفنا ٠٠ ورحنا نلتقط صورا للذكرى

وكعادة العرب أصر أحدنا على دفع ثمن المشروبات (المرطبات) ٠

ثم مضينا نستفسر عن وجهاتنا ٠

قال الأول :

ــ ماذا بعد ماليزيا ؟

قال ذلك وهو يشعل لفافة تبغ امريكية ، فقلت :

ــ العودة الى « الدوحة » ٠

ــ أما أنا وزملائى ٠٠ فسنواصل المسير ٠

ــ الى أين ؟

ــ الى هونج كونج ٠

قال الثانى ٠ أما الثالث فقال :

ــ وقد نمر بمدينة « تايبيه » ثم بمدينة « مانيلا » ٠

وانطلق الاذان ٠٠

فانطلقنا نحو المسجد ٠

* * *

المسلمون المتواجدون لاداء فريضة الظهر ، ليسوا بالكثرة التى توقعتها ، لكن القرآن يقرأ بالعربية ، والامام متخرج من الازهر ، ويعرف أحياء القاهرة كأحد أبنائها ٠

ــ ألم تحن اليها ٠٠ الى القاهرة ؟

ــ أوه ٠٠ ياأخى ٠٠ وهل هناك ماهو أشهى من الفول والطعمية وليالى رمضان قرب مسجد الحسين ؟

ـ « امتى الزمان يرجع ياجميل » ٠

غنيت لفترة ٠ وأنا أتحدث معه بجوار سور المسجد الضخم والرائع معا ٠ فأكمل :

ـ وأعيش معاك على شط النيل » ٠

وضحكنا ٠٠ ثم ودعته وانطلقت ٠ الى مكان آخر ٠

سرنا صفا واحدا خلف الدليل وهو يقودنا الى حديقة الحيوانات ٠ التى تبعد عن القصر والمسجد معا ٠٠ وهناك وهو يشير الى حشد من الفيلة والقرود والثعابين ٠٠ قال :

ـ أغرب مافى سلوك السلطان « أبو بكر » انه لم يفعل كغيره من السلاطين ٠

ـ وماذا فعل اذن ؟ !

سألت جارتى الحسناء ، فرمقها الدليل بنظرة محايدة وقال :

ـ لم يهتم بتكوين تجمع حاشد من النساء ٠٠

٠٠ لم يكن له حريم ٠٠

ـ اذن بم اهتم ؟

ـ اهتم بالحيوانات ٠٠ هذه التى ترون ٠

قال ذلك ، بينما رحت أسبر غور انفعـــالات جارتى

الحسناء وزوجها يقف من خلفها ‥ رمزا للوفاء ، ولم أدهش عندما رصدت هبوط البريق فى عينى جارتى ، ودمدمة احتجاج خفى تموجت لكطيف فوق وجه زوجها الصبور ٠

فالمرأة يهمها أن تكون مرغوبة دائما ، والرجل يهمه ان يتمتع بالدفء الانثوى كله ‥ لا أن يعيش بين حدود النار والجليد ٠

***

هذه قبور المسلمين ٠

قالها الدليل البوذى ، بلهجة ذات معنى لا ينم عن الاحترام ، ونظرت انها نفس القبور فى شرقنا العربى ، فى الشام ، فى مصر ، فى بغداد ، كبيرة ، ذات شواهد عالية ، والاسم مكتوب وتاريخ الوفاة ٠ وبالطبع كانت بالملايوية ، واخرى بالانجليزية ، لانهما لغتان اساسيتان هنا ٠

وبالجوار ‥ كان مستشفى لفقراء المسلمين فى الولاية ، وهو يشبه مستشفى الدمرداش فى القاهرة ، وان كان انظف مظهرا ، واقل ازدحاما ٠

ولم اجد من أسأله ، ان كان المسلمون هنا يلطمون الخدود ويشقون الجيوب على موتاهم ام لا ؟ كما لم اعرف ان كانت هناك مواسم لزيارة الموتى ‥ وتوزيع الفطائر

والتمـــر على الفقراء استجلابا للرحمة والمغفــرة ·· لأرواحهم ؟

وبالطبع لم يخبرنى أحد ان كان هناك مقرئون يتلون الآيات ـ قصارا وطوالا ـ حسب المعلوم وكرم أهل الميت كى تهدأ روح الميت وتستقر فى برزخها الابدى · أم لا ؟

وقرأت الفاتحة ·· ومضيت ·

***

هنا مقر حاكم الولاية ، وهنا البرلمان ، وهنا مقــر الشرطة و ··

وظل الدليل يلوح بذراعيه مع كل كلمة يقولها ، طوال جولتنـــا فى اقليم « جاهور » ·· حتى عدنا الى مراكــز الحدود ·· الذى لم يطل بنا المقام عنده ، واثرها قال ، ونحن ننطلق عبر سنغافورة مرة أخرى بعد أن عبرنــا الجسر :

ـ سنزور مقابر شهداء الحرب العالمية الثانية·وهناك هبطنا ·· مع المساء ·

* * *

مقبرة « كرانجى » الحربية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) ·

لوحة رخامية تطالعك فى أول خطوة تخطوهـــا عبر المقبرة الهائلة هنا ، فى شمال سنغافورة ·

أىنهاية هذه ؟

ساءلت نفسى ليس بالنسبة لختام رحلتى التى استمرت اثنين وعشرين يوما ، وانما بالنسبة ايضا لأربعة وعشرين ألف ضحية بشرية دفنت هنا ، وهى تدافع عن ..

عن ماذا ؟

عن حقها فى الحياة ؟

أم ترى دفاعا عن نظرية البقاء للأقوى ؟

ومشيت ، حزينا ، وسط القبور ، التى خلت شواهدها للحظة ، صفوفا من الجنود الاحياء قد هبوا دفعة واحدة لاستقبال المجهول .

وكدت أبكى ، اذ رغم أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت ، منذ أعوام طويلة .. طويلة الا ان مأساة بلادى ، أنا الفلسطينى السائر ميتا ، لم تحل منذ ذلك التاريخ حتى الآن .

هؤلاء الضحايا .. هم أنا وأنت . وأى مخلوق يمكن أن يذبح بغتة بأمر من الدول العظمى ..

وجثوت قرب قبر .. قارئا الاسم والعزاء ..

فتسللت كلمات الشاعر « لوركـــا » من العدم الى الذاكرة ، حاملة حزن العالم كله وهى تقول :

« عندما أموت

تحت الأرض ادفنوني

مع قيثارتي

عندما أموت

بين البرتقال

والنعناع

عندما أموت

ان شئتم فى دوارة الهواء

ادفنوني

عندما اموت

أه ‥ عندما أموت

اتركوا شرفتي مفتوحة

الطفل يأكل البرتقال

من شرفتي أراه

الحصاد يحصد القمح

من شرفتي أراه ·

اذا مت

اتركوا شرفتى مفتوحة »

وصحوت على « نهنهة » قريبة ·· كانت هناك عجوز ، بيدها باقة زهور ·· وبالأخرى منديل راحت تجفف بـه الدموع ··

ـ كان حلوا وصبيا ·· كان شجاعا ·

وكنت أحبه ·· فلماذا مات(٢١) ؟! ··

ـ ليباركه الله ·· ولدنا ·· ليباركه الله ·

قال زوجها العجوز ·· ثم توكأ الاثنان وعـادا مع الغروب · وبكيت ·

* * *

« لتحزم حقيبة السفر ·

ولتعد أوراقك وأقلامك ·· وما تبقى معك من نقود » ·

خاطبت نفسى ، فى طريق عودتى الى « بانكوك » ·

ووصلت · وصلت الى المدينة التى تركتها منذ أسبوع وفى « روزهوتيل » نمت ليلتى ·

ومع نسائم الفجر الاولى صـحوت · وفى مطـار « بانكوك » اغتسلت بالمطر · فقد كانت السماء تتدفق مطرا أو دمعا ·· لا أدرى ·

ومع لحظة الوداع · والطائرة تقفز الى حضن الرياح تذكرت « كاى سونج » ، و « شاو » و « محمد كريم الله » ، و « راجا » ·

ورنت فى أذنى مع هدير محركات الطائرة ·· آهــات الليالى فى تايلاند · وآهات التمزق فى سنغافورة ، كما رنت فى أذنى ومن تخوم ماليزيا ·· آهة من بقايا الحرب ·

* * *

فى مطار البحرين ·· حومت الطائرة طويلا ·· ثم هبطت وزغردت الحروف العربية ، وفى الجوار ، وعلى أحد مقاعد المنتظرين سفرا الى « الدوحة » ، ترك احدهم مذياعه ، وكان يغنى :

« ياطير ·· ياطاير ·· » ·

« بلغ سلامى ·· » ·

هزتنى الاغنية ، وصورة أمى التى لم أرها منذ ·· أعوام ·

ــ بسبب احتلال غزة ــ تهوم فى القلب والذاكرة ، فانصهرت كلمات الشاعر « ناظم حكمت » فى الحنايا ·· شوقا وحنينا هاتفا :

« وضعوا الشاعر فى الجنة »

« فصرخ : آه يا وطنى »

* * *

انتهت جولتى ·· فى الشرق الاقصى ·· فوداعا ، والآن الى العمل والاحتراق ·· اعود ·

لكن الشاعر ما زال يصرخ ·

ومازالت أمى كذلك ، شوقا ·· ولهفة وقلقا على الأبناء المبعدين عن الوطن ، فى جهات الدنيا الأربع ·

* * *

(انتهـــت)

● عن المؤلف / توفيق المبيض

- من أبناء قطاع غزة ، ومن مواليد عام ١٩٤٠
- تخرج فى كلية الآداب ـ جامعة القاهرة عام ١٩٦٣
- عضو فى اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

● كتب للمؤلف

ـ الصوت والكرامة ـ مجموعة قصصية ـ ١٩٦٩؛
ـ اسطورة ليلة الميلاد ـ رواية ـ ١٩٧٧
ـ القادم من تحت الانقاض ـ مسرحيات ـ ١٩٨٥
ـ بابا نويل لا يهدى وطنا ـ حكايات ـ ١٩٨٧
ـ نحو مسرح فلسطينى ـ ٣ مسرحيات عن الانتفاضة ـ ١٩٨٩

● كتب تحت الطبع

- منشورات منتصف الليل
- حوار مع طيور المنافى
- وجها لوجه